كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

فى البدء كانت الكلمة

د. شكرى محمد عياد



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط .

KITAB ALHILAL

العدد ٤٣٥ ــ رجب ١٤٠٧ ــ مارس ١٩٨٧

NO . 435 MARCH 1987

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة :
سميحـــة حسنـيـن

فى البدء كانت الكلمة

بقلم
الدكتور شكرى محمد عياد

دار الهلال

تقديم

قضية اللغة العربية هى أليوم قضية قومية وسياسية من الدرجة الاولى .

لا تقل ان بعض الناس يبحثون فى اللغة أو يعلمون اللغة ، وهؤلاء هم الذين يجب أن يهتموا بأمر اللغة . فانت تستعمل اللغة حين تعمل وحين تستريح وحين تأكل أو تشرب او تكره أو تحب . فاذا فقدت الاحساس باللغة فقدت جانبا كبيرا من الاحساس بهذه الاشياء نفسها .

ولا تحسبنى أبالغ حين اجعل اللغة قضية واصفها بأنها قومية وسياسية . فلعلك لم تنس بعد أن مظاهرات طلابية خرجت في الجزائر مؤيدة للتعريب . وارجو أن يتضح لك حين تصل الى نهاية هذا الكتاب أن قضية اللغة العربية قضية واحدة من أقصى المغرب الى اقصى المشرق ، وأن الاخطار التى تهدد اللغة العربية هنا هى نفسها الاخطار التى تهددها هناك .

والقضية لها جانبان :

الجانب الاول هو أننا لم نعد « نحترم كلامنا » . وأنت تعرف مانعنيه حين نقول عن انسان ما إنه « يحترم كلمته » أو « لا يحترم كلمته » . انهـا عبارة موجزة تلخص شخصيته وسلوكه . ونحن نعني بهذه العبـارة

غالبا أن الشخص المذكور يفي بالوعود التى يقطعها على نفسه او لا يفي بها . ولكنك اذا تأملت الامر قليلا وجدت أن كل كلمة نقولها تنطوى بالضرورة على قبول فكرة معينة . والقبــــول هو نوع من الاعتراف : اعتراف « بوجود » هذه الفكرة على الاقل ، حتى وان اختلفت مع مخاطبك حولها . ومعنى ذلك أن الكلمة ــ ايا كان نوعها ــ ترتبط بموقف معين ، حتى وان كان موقفـا سلبيا . فالكلمة الواضحة القوية هي كلمة الانسان الذي يعرف ما يريد ، ويصمم على تحقيقه . والكلمة المراوغة هي كلمة الانسان المراوغ . وقد امتلأت معاملاتنا اللغوية فى الحقبة الاخيرة بالكلمات المـراوغة ، فامتلأت حياتنا الاجتماعية بالمراوغة .

وقد تكون « المراوغة » نفسها موقفا ، بل قد تكون موقفا ضروريا فى أحيان قليلة ، ولكنها اذا أصبحت سمة غالبة على الحياة كلها ، أصبحت مشكلة بالغة الخطر .

ولأن الحياة لا تستقيم بالمراوغة المستمرة بل لابد لها من الوضوح والحسم فى كثير من الاحيان ، فقد نجد أنفسنا مضطرين ــ ان دام هذا الحال ــ الى أن نتخلى عن لغتنا فى تلك المواطن الجادة الحاسمة ، لنتكلم « كلام الخواجات » .

وهذا هو الجانب الثانى من المشكلة .

فلننس ولو مؤقتا أن لغتنا مجموعة من القواعد نتعلمها فى المدرسة ، أو كلمات يقال لنا احيانا أنها « صحيحة » أو « خاطئة » ، ولنتنبه الى هذين الخطرين الماثلين ،

وهما ـ فى تصورى ـ أهم الاخطار التى تتهدد مستقبلنا الوطني والقومي . وقد حاولت فى الصفحات التالية أن أوضح هذا التصور . وبدأت بالجانب الاول من المشكلة وهو الذى نعانيه يوميا في حياتنا ، والذى ينخر فى جذور شخصيتنا القوميـة دون أن نشـعر ، وثنيت بالجانب الثاني وهو الجانب الاخطر ، لان هـدفه « الاستراتيجي » ، كما يقال ، هو القضاء النهائي على هذه الشخصية .

على أننى حين أصف المسألة هنا ، وفى بعض تلك المقالات ، بلغـة الحرب والصراع ، لا احب أن القى مسئولية ما يجرى من افساد لغتنا العربية واضعافها على مستعمر قديم أو جديد . فاللغة مسئولة من أهلها وحدهم . وليس بحى من جعل حيـاته أو موته بيد غيره .



القســم الأول :

كلمات في حياتنا

حسين المرصفى

وكتابه « الكلم الثمان »

الشيخ حسين المرصفى رائد من رواد النهضة الادبية فى مصر . كان معاصرا لمحمــــود ســامى البارودى ، وعبد الله فكرى ، واجترأ فدرس شــعر الاول ونثر الثانى لطلابه فى مدرسة دار العلوم أول انشائها سنة ١٨٧١ . واذا لاحظنا أن جامعة القاهرة لم تبدأ فى تدريس الادب الحديث الا فى أربعينيات هذا القرن لم نستكثر وصف حسين المرصفى بالجرأة . لقد كان الرجل عصريا بــكل معنى الكلمة ، ولو أنه تعلم وعلم فى الازهر .. وكــان ضريرا ، ولكن همته سمت به الى تعلم اللغة الفرنسية بطريقة برايل ، فبلغ من معرفتها مبلغا لا يمكننا تحديده ولكننا نستطيع أن نجزم ــ اعتمادا على اشارات وردت فى كتبه ــ أنها فتحت له نافذة على الثقافات الحديثة . ومع ذلك فان عصرية الرجل لا تظهر فى هذه الاشارات بقدر ماتظهر فى طريقة تعامله مع تراثنا اللغوى والادبى . فهو يتصرف فى هذا التراث تصرف المالك ، اذ يشعرك دائما باستمراريته فى حياتنا الحاضرة . ولا يزال كتابه « الوسيلة الادبية » الذى ضم محاضراته فى دار العلوم وغدا موسوعة لغوية وادبية نهل منها جيلان على الاقــل من شداة الادب ــ لايزال هذا الكتاب فى بعض أجزائه

على الخصوص أنضر فكرا من كثير مما يكتب عن الادب العربى فى هذه الايام (١) .

ولكننى لم اقصد الى هذا الكتاب بالحديث . وانما قصدت كتابا آخر للمرصفى عنوانه « الكلم الثمان » . وقد طبع هذا الكتاب ، كما ذكر طابعه فى الصفحة الاخيرة ، سنة ١٢٩٨ هجرية ، أو ١٨٨١ ميلادية . اى فى ابان الثورة الوطنية الدستورية الاولى ، التى تزعم عرابى المرحلة الاخيرة منها ، ولكن بداياتها ترجع الى نحو من عشرين سنة قبل ذلك ، كما يصرح عبد الله النديم في بعض رسائله . بل ان هذه البدايات نفسها لم تكن الا حلقة فى سلسلة الكفاح الوطنى الدستورى الذى بدأ منذ أواخر عصر المماليك ، عندما حصل شعب القاهرة على وثيقة موقعة من الباشا التركى وزعماء المماليك بضمان العدالة فى جباية الضرائب ومعاملة الرعية . لذلك لا نعجب اذا وجدنا الكلم الثمان التى يتحدث عنها المرصفى هى : الامة ، الوطن ، الحكومة ، العدل ، الظلم ، السياسة ، الحرية ، التربية . ولكننا يجب الا نعجب أيضا اذا لاحظنا ابتعاد المرصفى عن مشكلات السياسة المباشرة وتقلبات الاحداث السياسية الجارية فى زمنه . فلم يكن للمرصفى – كما يبدو – اشتغال مباشر بالسياسة العملية ، ولكنه كان حلقة فى تلك المؤسسة التعليمية العظيمة التى تخرج فيها أعلام الفكر والادب والاصلاح الاجتماعى كما تخرج الزعماء

(١) عن حسين المرصفى الناقد وكتابه « الوسيلة الادبية » اقرأ الفصل الاول من كتاب « النقد والنقاد المعاصرون » للدكتور محمد مندور .

والقادة من مدنيين وعسكريين . المؤسسة التى مثلها رفاعة رافع الطهطاوى ثم على مبارك ثم محمد عبده ، فى سلسلة لم تنقطع قط وان كانت قد تفرعت وتشابكت مع غيرها فى هذا القرن الاخير . وعسى أن يكون تفرعها وتشابكها نموا واتساعا ، لا تشتتا وضياعا .

ولا يتسع المقام هنا لأستعرض موضوعات الكتاب كلها أو معظمها ، حتى لو راعيت الايجاز الشديد . ولذلك سأقتصر على موضوع واحد من الموضوعات التى عرضها المرصفى ، أو مشكلة واحدة من المشكلات التى طرحها . فالواقع أن موضوعات « الكلم الثمان » هى مشكلات ، لان لكل كلمة منها مفاهيم غامضة ـ وأحيانا متضاربة ـ فى أذهان الناس . وربما كانت الكلمات الثمان ، أو المشكلات الثمان ، كلها مشكلات حية الى وقتنا هذا ، ولكن المشكلة التى آثرتها بالعرض هى ـ فى ظنى ـ اكثرها حياة ، وأشدها الحاحا .

بعد أن يعرف المرصفى الامة ويصف حاجتها الى نظام كلى يراعى المصلحة العامة التى قوامها استجلاب المنافع ودفع المضار ، يلاحظ أن الضرر والنفع ربما تشابهها أو تمثل أحدهما فى صورة الآخر ، ومن ثم وجب أن تقوم فئة أو أمة من بين الامة تنبه الكافة الى مكان الضرر ومظنة المنفعة . ثم يتساءل : « وهل هذه الامة كائنة . أو كانت ؟ » ويجيب : « لا أثبت ذلك ولا أنفيه حتى أفاوضك الحديث فيه » .

ثم يأخذ فى استعراض الفئات التى يمكن أن تلتمس لديها القيادة الفكرية . فلا يتجاوز الفئات المعروفة فى

زمنه ليصور احلاما مستحيلة أو جمهورية فاضلة .
وأول من يبدأ به من هؤلاء طائفة خطباء المنابر . وبعد أن يصف أحوال الغالبية منهم وصفا مفعما بالسخرية « فغاية أمر الواحد منهم أن يقرأ ديوان خطب صنفه بعض أسلافه كما تخيل مناسبا للشهور والمواسم ، فيتحفظ ما تعطيه تلك النقوش من مواد الالفاظ ، او ينسخ صورة خطبة ليخف حملها عليه اذا قام بها خطيبا ، يسرد الفاظا حفظها أو نظر حروفها لا يعقل معناها ولا يفهم المراد منها » ـ يخاطب قارئه قائلا « ما أظن انك تستجيز أن تقول أردت هؤلاء » .

ثم ينتقل الى طائفة العلماء ـ ويقصد علماء الدين ـ عارضا حالهم في صورة حوار بينه وبين قارئه ، « وان قلت انها العلماء قلت هذا قريب ، ولكن ننظر . » فأما علماء الصدر الاول فقد جمعوا الاصول ونقوها من افساد أهل النفاق والزندقة . وأما الطبقة التي خلفتهم فقد عكفت على مادونه الائمة تنقيحا وترتيبا وشرحا . ثم جاء بعد هؤلاء خلف اتخذوا الجدل شرعة والمنازعة سبيلا وخرج بهم ذلك الى العداوة فخضعوا لاهواء الملوك الجهلة من الترك والديلم وغيرهم . ولم يزل الاختلاف الذي هو منشأ تلك العداوة مستمرا يخفيه الضعف وتظهره القوة كما ترى . فهل يسوغ لك بعد معرفة هذا ان تقول انها العلماء ؟ »

ويتكلم عن طائفة الوعاظ وتلفيقهم للاحاديث التي يفرحون بها نفوس العامة بما يلفقون من ذكر كثرة الثواب مع قلة العمل ، حتى هونوا عليهم أمر المعصية وركزوا في نفوسهم اسباب الغفلة وخمود الطباع .

واخيرا ينتهي المرصفي مع قارئه الى أن هذه الفئة المرجوة لارشاد الامة « لم تكن وهي غير كائنة ويجب أن تكون » . وفي نهاية المناقشة يعرض للصحافة ، فيقول: « وكنت أرى أن هذه الصحائف المعدة لنقل الاخبار .. قد قام أصحابها في الامة بحسب الامكان بهذا الامر . ولكن يأخذ عليهم المبادرة باثبات الاخبار الكاذبة ... والمبادرة بالطعن اعتمادا على خبر واحد وربما حملتـه الاغراض الخاصة على أجتراء الافتراء .. وكثرة القول في فساد الاحوال دون تحقيق جهات الفساد . »

ومع ذلك فانه لا يستبعد الصحافة ، الا أنه يشترط أن يتعلم الشعب أولا كي تؤدي الصحف وظيفتها في الارشاد والتوجيه .

الثقافة

أغرانى كتاب الشيخ حسين المرصفى « الكلم الثمان » بأن أختار كلمات كثيرة الدوران على ألسنة النـــاس وأقلام الكتاب فأحاول تحديد معانيها ، كما فعل ذلك الرائد منذ أكثر من مائة سنة بكلمات مثل : الامة والوطن والحكومة الخ . وأول ما اصطدمت به ـ حين أخـذت أتخير هذه الكلمات لادير حولها حديثى ـ ان كل واحدة منها ترجع الى علم أو فـــرع من علم له أربابه الذين تخصصوا فيه واتقنوه . فكلمات مثل : اقتصاد واستهلاك وانتاج وتنمية وتخطيط أصبحت من الكلمات الدائرة على الالسنة والاقلام ، مع كونها علوما أو فروعا من عـلوم تدرس فى الجامعات . فهل أزيد ـ اذا تناولت هـذه الكلمات وأمثالها ـ على أن التقط بعض ما تورده عنهـا دوائر المعارف فأترجمه بحسب مايصل اليه جهدى ؟ وهل أسلم عند ذلك من خطأ فى الفهم او خطأ فى التعبير، وان سلمت من الخطأ فهل ترانى أتناول الا أفكارا عامية يراها المتخصصون تشويشا وبلبلة ؟

وهكذا كدت أعدل عن الفكرة . لولا أن خاطرا عـاد يلح على : ان احترامنـا للتخصص واعتمـادنا على المتخصصين فى مجالاتهم المختلفة لا ينفى أن يكون لنـا اهتمام بموضوعات اختصاصهم من حيث مساسها بحياتنا

الخاصة والعامة . فنحن نعـــرف حاجتنـــا الى الطب والهندسة ووظيفة كل منهمـــا فى تدبير أمور حياتنـــا ، وان لم نكن أطباء ولا مهندسين . واذا كان لكل متخصص دوره فى تنظيم شئون الحياة فهناك الحياة نفسها وهى شيء اكبر من مجموع التخصصات ، فهى التى تخلق التخصصات حين تدعو اليها الحاجة ، وهى التى تكون من مجموع هذه التخصصات منهجا للعيش واســـلوبا للتعامل بين الناس . وتخصص الكتاب ــ ان كان لهم تخصص ــ هو هذا الشيء العام المبهم الذى نســـميه الحياة . فلا بأس عليهم اذا تناولوا كلمات يراها المختصون فى الاقتصاد أو السياسة او علم النفس أو علم الاجتماع من صميم عملهم ، فالكاتب لا يدخل فى فنية أى واحد من هذه الاعمال ، ولكنه يبحث فى مدلول الكلمات مـــن حيث علاقته بحياة الناس عامة . هذا مطلب ضرورى فى كل مجتمع قديم أو حديث ــ وان كانت مجتمعاتنا الحديثة التى سيطرت عليها التكنولوجيا ــ ولهذه الكلمة أيضـــا حديث ــ تفرض على الكاتب المعاصر جهدا مضاعفا لتأنيس هذه الحياة التكنولوجية المعقدة ، أى بحث العلاقة بينها وبين مطالب الانسان ومشكلاته .

وحين اطمأننت الى هذه الفكرة رأيت من المنـــاسب ان أبدأ بكلمة « ثقافة » . « فالثقافة » ــ كأحاديثى هذه ــ لا تتناول شيئا واحدا مخصصا ، ولا تفيد صنعة يكسب منها الانسان خبرة ، واذا كانت قد أصبحت عملا لبعض الناس ــ كالكتابة ــ فهؤلاء لا ينتجون الا « مثقفـــين » امثالهم ، والتاجر أو صاحب المصنع معذور اذا نظر الى محترفى الثقافة هؤلاء على أنهم فئة عاطلة ، لا تحسن الا

الكلام ، أو مايشبه الكلام من خزعبلات ، فليس فيهم فائدة ، وقد يكون منهم أفدح الضرر .

فهل الثقافة كذلك حقا ؟ هل تعنى « الثقافة » كل شيء دون أن تعنى شيئا بالتحديد ، وهل « المثقف » هو ذلك الانسان الذى لا ينتج شيئا للمجتمع ، ولكنه يكتفى بالنظر والكلام ؟

لعل الاوفق أن نؤجل الحديث عن علاقة المثقف بمجتمعه وننظر الآن فى كلمة « الثقافة » محاولين الوصول الى مدلول وأضح لها . هل تعنى ــ مثلا ــ مستوى معينا من اجادة القراءة والكتابة ؟ هل تعنى كما من المعلومات فى شتى جوانب المعرفة ؟ هل تعنى الآداب والفنون التى تطلب لذاتها ، وتعد متعا « راقية » ، كقراءة الشعر الغامض ، ومشاهدة المسرحيات العالمية ، والاستماع الى الموسيقى الكلاسيكية ؟

لاشك أن هذه المعانى كلها تشترك فى مدلول « الثقافة » كما تستعمل الكلمة فى حياتنا اليومية . ولعلها تستوفى معظم جوانب هذا المدلول . ولعلها مسئولة عن شيء من الرهبة يحيط بهذه الكلمة ، وشيء من الغــرور تلاحظ آثاره على الانسان المثقف : من ازورار عن مخاطبة الناس ، وضيق باشغال الحياة العادية ، ورغبة ملحة فى السفر الى الخارج ، الخ .

ولكننا لو تأملناها واحدا واحدا لما وجدناها الا مظاهر للثقافة ، تثبت فى بعض الاحوال دون بعضها الآخر ، ومن ثم فهى لا تدخل فى المعنى الجوهرى للثقافة . وأول هذه المعانى ، واجدرها بالاستبعاد ، اجادة القراءة والكتابة .

فالقراءة والكتابة وسيلتان للتفاهم ، وتحصيل الخبرات البشرية ـ على اختلاف الازمنة والامكنة باقل جهد . ومن ثم فهما وسيلتان الى اشياء كثيرة نافعة ، ويمكن أن تكونا وسيلتين للثقافة دون أن تكونا هما الثقافة . والا فهل يصح أن نسمى من يقرأ شعر امرىء القيس او يدرس الادب الشعبى مثقفا ، ولا نعد الشاعر الشعبى او امرأ القيس نفسه مثقفين ؟

واما ان الثقافة تعنى كما متنوعا من المعلومات فقول لا يخلو من وجاهة . وهو على كل حال مفهوم الثقافة كما تعبر عنه بعض البرامج الاذاعية والتلفزيونية الناجحة، حيث يسال المتسابقون أسئلة فى اللغة والجغرافيا والسياسة والتاريخ ثم يطرح عليهم لغز ثم تعزف لهم قطعة موسيقية عليهم أن يعرفوا اسم ملحنها أو مغنيها أو اسم القطعة نفسها . ولكننا نتساءل ـ مع كل الاحترام لهذه البرامج ـ هل كم المعلومات وحده يخلق الانسان المثقف ؟ الا ترى اننا لو برمجنا دائرة المعارف البريطانية وغذينا بها واحدا من هذه الكومبيوترات لبذ جميع المثقفين فى العالم ؟

اما ان يكون الشعر الغامض او الموسيقى ألكلاسيكية جوهر الثقافة وكنهها ، أو حتى علامتها ومعيارها ؛ فيستلزم بالضرورة الا يكون أدباؤنا وعلماؤنا السابقون ، وكثير من اللاحقين ، مثقفين . ولا أظننا نقبل ذلك .

واذا فما مفهوم « الثقافة » الذى يصدق على كل عصر وجيل ؟ احسبنا نستطيع أن نتفق على أن الثقافة ليست من صنع فرد ، بل هى مجموع اسهامات عدد من الناس

يلتئمون في مجتمع ، سواء منها ماكان راجعا الى تأكيد الارتباط بين أفراد الجماعة ، وما كان راجعا الى سيطرة الجماعة ـ ككل ـ على بيئتها الطبيعية ـ بشرط الا نفهم هذا المجموع على أنه كم حسابي مكون من شتى المعارف النظرية والعملية وشتى المنتجات الادبية والفنية ، بل على أنه نظرة الى الوجود ، وطريقة في العيش ، تتجليان في هذه المظاهر فتعرفان بها ، وتستفادان منها .

الثقافة والحضارة

بعض الكلمات تخطر في البال كلمات أخرى مقاربة لها ، فيتردد الانسان احيانا : هل يقصد هذه أم هذه ؟ وهنا تقوم مشكلة الفرق بين المعنيين . واذا كانت هذه الكلمات من الفاظ القيمة ، أي من تلك الكلمات التى تدل على اشياء نحبها او نحترمها ، أو نعرف ان بعضا منا يحبونها ويحترمونها ويحرصون عليها ، فان التردد بين الكلمتين يكون — في كثير من الاحيان — ترددا بين قيمتين .

من هذه الكلمات كلمتا الحضارة والثقافة . هل نقول ، في معرض الشعور بواجبنا الوطني ، ان علينا أن ننهض بثقافة بلادنا او بحضارة بلادنا ؟ وهل يحب أحدنا أن يقول، في معرض الفخر ، انه مثقف او انه متحضر ؟ في مثل هذه المناسبات يكون الاختيار اختيارا دقيقا — بل يمكن ان يكون مؤلما — لشخصيتنا وميولنا ، مع أن السياق ، في أحيان أخرى كثيرة ، يعين احدى الكلمتين بدون لبس، فنحن نتحدث عن الحضارة المصرية القديمة ، وحضارات وادى النيل ، وحضارات الرافدين ، ولا تخطر على بالنا كلمة الثقافة . ونتحدث عن الحضارة الاسلامية والثقافة الاسلامية ، والحضارة اليونانية والثقافة اليونانية ،

والحضارة الغربية والثقافة الغربية ، ولا نجد صعوبة في اختيار هذه الكلمة مرة وتلك مرة اخرى ، لاننا نجد الفرق في المعنى واضحا بينهما . ونقول فلان ثقافته عربية ، أو انجليزية ، أو فرنسية ، ونعلم أننا لو وضعنا « حضارته » بدلا من « ثقافته » لكان للتعبير رنين مضحك فالحضارة حالة للمجتمع البشرى عندما تقوم فيه دولة مستقرة تضبط شئونه ، ويتمثل استقرارها وسلطانها في « حاضرة » أو « حواضر » ، مع ما تستتبعه حياة الحواضر من نظم معقدة . ولذلك فان هذه الدول ترعى شكلا معينا من أشكال الثقافة يساعد على استمرارها . واذا تركت آثارا مكتوبة كافية للتعريف بهذه الثقافة فاننا نستطيع أن نتحدث عن ثقافات كما نتحدث عن حضارات اختص بها أقوام معينون في حقب تاريخية معينة .

ولكن الملاحظ أن الحضارات تعمر أكثر مما تعمر الدول ، ولذلك تنسب الى المكان أو الشعب ولا تنسب الى الدولة . فالحضارة المصرية القديمة استمرت قرابة ثلاثة آلاف سنة تعاقبت على الحكم فيها نيف وعشرون أسرة حاكمة وتخللت ذلك فترات من الفوضى والحكم الاجنبى ، والحضارة العربية الاسلامية لم تزل قائمة منذ خمسة عشر قرنا مع اختلاف الاسر الحاكمة ونظم الحكم . فالشعوب اذا خرجت من طور البداوة القبلية ودخلت في طور الاستقرار المدنى ألفت هذه الحياة وصعب عليها أن ترتد الى بداوتها الاولى ؛ فيتغير الحكام وتبقى الحضارة لا تتغير الا بقدر ، ووفقا لقوانين طبيعية اقوى من ارادة الحكام .

وربما كانت الثقافة أعمق جذورا وأشد رسوخا من

الحضارة نفسها . فالثقافة اليونانية استمرت فى الحياة بعد أن تجاوزت الحضارة اليونانية ألطور الهلينى وانتقلت الى الطور آلهلينستى ، وهما حضارتان فى الحقيقة ، اذا لاحظنا أنها فى الطور الثانى استقرت فى أوطان جديدة وامتزجت بحضارات تلك الاوطان . ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن الثقافة ألعربية الاسلامية والحضارة العربية الاسلامية . فما سر هذا الاختلاف ؟

اننا نلمح هذا السر حين نلاحظ أننا ننسب الثقافة الى اللغة ، كما ننسب الحضارة الى الشعب أو الوطن . وربما خفى هذا الفرق فى عبارات مثل : الثقافة العربية أو الفرنسية او الانجليزية . فالنسب هنا صالح - من الناحية اللغوية المحضة - أن يكون للغة أو للشعب . ولكن مارأيك فى عبارة مثل : « فلان ثقافته انجليزية أو فرنسية » ؟ هل يقصد احد بمثل هذا القول أن فلانا العربى قد خلع ثقافته من جنسها وادخلها فى جنس الانجليز او الفرنسيين ؟ لاشك أن المقصود هو أنه أتقن ألغة الفرنسية أو الانجليزية حتى اصبح يقرأ ويفكر بها . ومع أن فى هذا التعبير قدرا من المبالغة كما أن فيه تضييقا لمعنى الثقافة ، فانه يبرز الفرق بين الثقافة والحضارة من حيث انك لا تستطيع ان تقول : « حضارته انجليزية أو فرنسية » . فالحضارة مجموعة نظم ؛ يمكن أن يخضع لها الشخص ، فيقال انه متحضر ، أما الثقافة فانها أسلوب فى التفكير ، يكمن فى قلب هذه النظم ، ولكنه يتجسد فى اللغة . فاذا أتقنت اللغة اتقنت أسلوب التفكير الذى تجسده ، فصح أن يقال أن ثقافتك انجليزية أو فرنسية ، اذا كنت لا تتكلم اللغة كأهلها فقط ، بل تفكر بها كتفكيرهم ايضا .

واذن فنحن حين نختار الحضارة بدلا من الثقافة ، نختار العرض ونترك الجوهر ، نختار الجسم ونهمل الروح ، نختار النظام الذى يمكن أن نكون مجبرين عليه ، أو مقلدين فيه ، ونترك النظام الذى ينبع من أعماق نفوسنا .

ثم اننا اذا أردنا أن نكون متحضرين بمفهوم هذا العصر ، فيجب أن نتحضر بحضارة العصر ، لا بحضارة اجدادنا الذين عاشوا فى هذا الوادى منذ سبعة آلاف سنة . نعم اننا اكتسبنا عادات الحضارة حتى تأصلت فى نفوسنا ، عادات التعايش وتبادل المنافع والخضوع للأعراف والنظم ، حتى ولو كانت غير مقبولة ولا معقولة . ولكن هذه العادات يمكن أن تعنى الركود الحضارى ، الذى يؤدى لا محالة الى التفسخ والانحلال . فالحضارة الحقيقية ، الحضارة النامية ، لابد لها من ثقافة تنفخ فيها الروح .

لا يمكننا أن نتحضر ولغتنا تموت على السنتنا واقلام كتابنا . اننى لا أتكلم عن لغة المعاجم القديمة والمطولات النحوية . اننى أتكلم عن لغة عصرية ، دقيقة ، محددة ، لا فضول فيها ، كلها عضلات كالفرس العربى الاصيل ، يمتطيها فارسها ، وكلنا ذلك الفارس ، فتطير به أو يطير بها الى الفرض البعيد ، فكرة مستترة يكشف قناعها ، أو خيالا جامحا يصيده .

لغة عربية جديدة ، تعنى ثقافة عربية جديدة ، وثقافة عربية جديدة تعنى حضارة عربية جديدة . والا فسوف نبقى عيالا على الغرب ، نلهث وراءه بساق مهيضة ، واخرى مشلولة ، ونتبلغ بما يسقط الينا من فتات طعامه .

المثقف

ترى هل لاحظت ان لكلمة « المثقف » خاصية غريبة ـ وهي انها اذا قيلت او كتبت هكذا بصيغة المفرد « مثقف » كان لها معنى ، واذا قيلت بصيغة الجمع « المثقفون » كان لها معنى آخر مختلف بعض الاختلاف ؟ أنت تقول : رجل مثقف ، او امرأة مثقفة ، تعنى غالبا انهما يقرآن الكتب : ويتابعان الموضوعات العامة ، ويمكنهما الاشتراك فى نقاش جاد . وربما قصدت شيئا أكثر تحديدا من هذا، وهو أنهما تعلما وحصلا على شهادة . وهذا معنى تصادفه كثيرا فى اعلانات الزواج . ومن المؤكد أن كثيرا من الفتيات يواصلن تعليمهن حتى الجامعة لاسباب كثيرة ليس أقلها أهمية أن يستطيع أهلها وصف ابنتهم بأنها « مثقفة » ، وان يعاملها زوج المستقبل باحترام لانها « مثقفة » . وقد سمعت عن شباب يعملون فى حرف تدر عليهم رزقا واسعا كالسباكة واعمال البناء واصلاح السيارات ولكنهم يلتحقون بالجامعة لانهم يودون أن يتزوجوا فى أسر محترمة ، والاسر المحترمة تود أن يكون عريس ابنتهم « مثقفا » . ان هذا المعنى الشائع لوصف « المثقف » يجعله مرادفا « للمتعلم » . ولكن بعض « المثقفين » المزعجين لا يوافقون على هذه التسمية ويزعمون أن التعليم وحده لا ينشىء ثقافة ولا يدل على

ثقافة ، وقد كتب المرحوم الدكتور محمد مندور مرة او اكثر من مرة عما سماه « أمية المتعلمين » ، يعني بالامية هنا نقيض الثقافة . ونحن نعرف ولاشك كثيرا من المتعلمين الذين لا يقرءون ولا يتابعون الموضوعات العامة ولا يصبرون على نقاش جاد ، وهو ما ينتظره من انسان مثقف . بل ان من هؤلاء المتعلمين من يعوزهم نضج الشخصية وحصافة الرأى اللذان يتصف بهما معظم مواطنينا الاميين من القرويين وابناء البلد . واذا قلت ان الجاهل او غير المتعلم يستسلم لشتى الخرافات والاوهام فيحسن بك أن تتذكر كبار المتعلمين وعلية القوم الذين يترددون على العرافين والسحرة ، ويسلمون عقولهم ورقابهم الى المشعوذين الذين يتجسرون بالدين وهم لا يحسنون أن يفسروا آية من كتاب الله .

التعليم اذن قد يجتمع مع الثقافة وقد يكون عنها بمعزل ، فهو علامة على الانسان المثقف ، ولكنه كالعلامة التى توضع على بعض السلع المستوردة ، يمكن أن يكون علامة مزيفة ، الثقافة هى الاصل والتعليم هو الفرع ، واذا تباعد الفرع عن الاصل حكمت بأن ثمة خللا فى النمو يقتضى تقويم الفرع . والحقيقة أن نظم التعليم عندنا تحتاج الى تقويم كثير . ولكن هذا حديث آخر .

ولماذا يضطرب مفهومنا « للمثقف » أو يغمض ، بحيث نحتاج فى تعيينه الى تلك العلامة ألتى كثيرا ماتخطىء ؟ لنتذكر أن الثقافة بناء اجتماعى . والدليل على ذلك أنها صفة مكتسبة ، لا يولد بها الانسان كالذكاء مثلا . فاذا اضطرب مفهومنا للثقافة فمعنى ذلك أن بناءنا الثقافى

الاجتماعي مضطرب . والاضطراب شيء غير التأخر أو التخلف . فربما كانت ثقافتنا منذ مائة سنة ، أو مائتين ، متخلفة جدا بالقياس الى مانملكه اليوم من ثقـــافة ، ولكنها كانت أقل اضطرابا . وقد يكون في اســتطاعتك أن تقول عن فرد ما انه « مثقف » أو « غير مثقف » ، ولكنك لا تستطيع أن تقول عن شعب أو أمة انها « مثقفة » أو « غير مثقفة » . لان كل أمة تبني طريقة حياتها ، كيف تأكل وكيف تشرب ، كيف تستريح وكيف تعمل ، كيف تتعارف وكيف تتناكر ، كيف تستقبل اطفالهــا ، وتربي ناشئتها ، وتزوج بنيها وبناتها ، وتودع موتاها . كيف تقيم أفراحها وتفض منازعاتها ، وهـــذه الامور وما اليها هي الثقافة . ولاشك اننا كنا نملك ثقـــافة منسجمة قبل أن تصدمنا ثقافة أخرى وهي الثقـــافة الغربية . كانت الصدمة قاسية لاننا وجدنا القــــوم متفوقين علينا في كل شيء . وليس هناك دليل على التفوق اقوى من أنهم غلبونا وقهرونا . والمغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب كما يقول ابن خلدون . وهـــكذا قلدناهم في طريقة لبسهم وأكلهم وبناء بيوتهم . وقلدناهم في آدابهم وفنونهم ، وأخذنا قشور حضارتهم دون اللباب ، فلم نحسن علومهم ولا صناعاتهم ، مع أننـــا نسكن في بيوت كبيوتهم ونلبس ملابس كملابسهم ، ونركب أفره سياراتهم وان كنـــا لا نحسن آن نصـــنع دراجة . وتفرقنا شيعا : منا من يؤمن بأن علينا أن نأخذ الحضارة الغربية بعجرها وبجرها ، بحلوها ومرها اذا أردنا أن نحافظ على وجودنا ، ومنا من يعتقد آننا نفقد وجودنا كامة اذا فرطنا في القيم الحضارية التي

ورثناها عن أسلافنا . ويرد عليهم الفريق الاول قولهم متسائلين : ومن أسلافنا ؟ فترى هذا الفريق يقفز فوق مئات السنين من الحضارة العربية التى لا يفهمها ولا يريد أن يفهمها ، ليقول اننا ورثة الفراعنة أو ورثة الفينيقيين . وأنصار الحضارة الغربية يحتقرون آدابنا وفنوننا ، القديم منها والحديث على حد سواء ، لانها لم تقدم شاعرا كهوميروس أو شكسبير ، ولا موسيقيا كبيتهوفن او مصورا كميشيل انجلو . أما السلفيون فيعرضون عن ثقافة الغرب اعراضا ، ويتجاهلونها تجاهلا، أو هم يستخفون بها ويهونون من قيمتها ، وتراهم مع ذلك يتحينون الفرص ليوشحوا مقالاتهم واحاديثهم بكلمة قالها عالم أو اديب من أولئك الاعاجم ، ولعلهم التقطوها مما تنشره الصحف من نتف الاخبار .

فمعظمنا وقفوا حائرين أمام طوفان الحضارة الغربية الداهم : الذين رفعوا شعارا ما ، معها أو ضدها ، لم يكونوا على يقين من سلامة موقفهم ، فاتسم سلوكهم بدرجة كبيرة او صغيرة من النفاق ، والاكثرون انساقوا بلا وعى ، فهم محافظون حتى يغلبهم الجديد على أمرهم فيأخذونه مستسلمين ، وذوو البصيرة — وقليل ماهم — صوتهم ضائع بين صيحات التعصب ودوى آلات الحضارة .

فهل تنتج ، من مجموع هذه المواقف الاربعة ، ثقافة منسجمة ؟ الجواب واضح . واذا كنا نقول ان الثقافة من صنع المجتمع فليس معنى ذلك أن الافراد يقومون بدور سلبى فيها . فليست الثقافة شيئا جامدا ، ولكنها

تتغير وتتطور ، والذين يتحملون عبء تطويرها هم الافراد والجماعات الصغيرة . لهذا يحدثنا التاريخ ان التغيرات الثقافية العميقة كانت تجرى بمعزل عن السياسة الى ان تتضح ضرورتها فيأخذ بها الكافة ان كان النظـــام ديموقراطيا ، او يحملوا عليها ان كان النظام أوتوقراطيا . وتختلف النتائج باختلاف الاحوال . ولكن الملاحظ دائما فى أدوار التغير الاساسى ـ كالدور الذى تمر به ثقافتنا ـ ان علاقة المثقف بمجتمعه يجب ان تكون علاقة ريادية . فالمثقف الحقيقى ، فى مثل هذا الدور ، باحث عـن الطريق الصحيح الذى يجب أن تسير فيه ثقافة قومه . واذن فلا يمكننا أن نقول انه يمثل هذه الثقافة . لان الذى عندنا ليس ثقافة ، ولكنه مشروع ثقافة . ومثقفنا كذلك ليس مثقفا ولكنه مشروع مثقف . وهذا لايضيره ، بل انه يمكن أن يحرز شرفا غير عادى اذا كان مشـروعا جيدا . ومن طبائع الامور أنه بجانب كل مشروع جيد ، توجد المشروعات غير الجيدة بالعشرات والمئات . هؤلاء المتعلمون الذين نسميهم مثقفين ، وماهم بالمثقفين .

المثقفون

المثقفون جمع مثقف . ولا أزيدك علما عندما أقول ان هذا الجمع الذى يجىء بزيادة واو ونون على مفـــرده يسمى فى اللغة جمع مذكر سالما . واكثر من ذلك ان هذه المعلومة اللغوية ـــ التى تعرفها من قبل بدون أدنى شك ـــ لم تعد لها قيمة كبيرة عند أحد ـــ ففى كــل الامور المهمة لم يعد ثمة فرق بين الرجل والمرأة ، المرأة كالرجل تشتغل بالعلم والادب ، وتنوب عن الامـــة ، وتشغل وظيفة مدير عام ووظيفة أستاذ ، واذا خوطبت فى مكاتبة رسمية لا يقال لها السيدة الاستاذة الدكتورة ولا السيدة المديرة العامة ، بل يقال ببساطة تامـــة : السيد الاستاذ الدكتور والسيد المدير العام ، واللغـــة تتطور بسرعة لكى تستجيب لهذه التسوية ، فأنا أبحث فى صحفنا منذ مدة عن ضمير كان يقال له نون النسوة ، فلا أجده ، ولا أجد أحدا يفتقده ، بدليل أنى لم أصادف اعلانا واحدا يحمل صورته ويقول أنه خرج من منزله ولم يعد منذ شهر أو سنة او عشر سنين .

ونحن عندما نتحدث عن المثقفين لا نعنى الرجـــال وحدهم بطبيعة الحال . ولا نلحق النساء بالرجال على قاعدة التغليب التى يتحدث عنها علماء اللغة . فالجميع غالبون والجميع مغلبون ، وفى الثقافة على الخصـــوص

لا فرق ــ كان أو يكون ــ بين رجل وامرأة .

ولكن من عجيب أمر هذه الكلمة ان جمعها كما يختلف عن مفردها فى أمور كثيرة فهو يختلف عنه من هذه الجهة ايضا . فبينما تسوى صيغة الجمع تسوية تامة بين الجنسين نرى لكل من المفرد المذكر والمفردة المؤنثة معنى مختلفا . فالمفرد المذكر قليل الاستعمال نسبيا ، واستعماله القليل هذا يأتى غالبا فى مقام السخرية ، فاذا وصف رجل أو شاب ــ من باب الاغتياب البرىء ــ بأنه «مثقف» فالقصد من ذلك أنه يتحذلق ويدعى العلم ويتكلم كلاما لا يفهم . أما اذا وصفت فتاة بأنها مثقفة فالقصد غالبا هو أن تنفق سوقها لدى طالبى الزواج ، واذا وصفت زوجة بانها غير مثقفة فهناك تحريض خفى لزوجها على تطليقها . وهكذا يضعنا المفرد والمفردة امام مشكلات اجتماعية عسيرة الحل .

ولكن الجمع أذ يلغى الفروق بين الجنسين لا يلغى المشكلات . بل انه يستبدل بالمشكلات الاجتماعية التى تمس مستقبل الفرد مشكلات اجتماعية أخرى تحيط بمستقبل الامة . فاذا كان المثقف والمثقفة ــ مفردين ــ يعكسان فى سلوكهما قيم المجتمع الذى يعيشان فيه ، فيطمئنان اذا اطمأنت هذه القيم ويقلقان اذا قلقت ، ويرتقيان اذا ارتقت وينحطان اذا انحطت ، فان المثقفين ــ جماعة ــ يعدون فئة من فئات المجتمع تقوم بدور معين داخل نظام اجتماعى معين ، اى أنهم خاضعون ــ كغيرهم ــ لتقسيم العمل ، او مظهر من مظاهر هذا القانون الاجتماعى . وكما نتحدث عن عمال وفلاحين واقطاعيين ورأسماليين نتحدث أيضا عن مثقفين ، ونقصد بهم تلك

الفئات التي تمارس مهنا عقلية ، كالمعلمين ، والمحامين ، والصحفيين ، والكتاب ، والفنانين . وطبيعي أن المثقفين، كجماعة ، يمكن أن يوجد بينهم أفراد غير مثقفين ، كأفراد ، كما أن الجماعات الاخرى التي سبق ذكرها يمكن أن يوجد بينها أفراد مثقفون ، بل أعمق ثقافة من جماعة المثقفين . هذه التفرقة التي تبدو مبهمة في اللغة العربية لا تبدو كذلك في الانجليزية أو الفرنسية مثلا : فعندهم كلمتان متميزتان : احداهما تدل على الصفة الفردية للمثقف ، وان كان الانجليز يميلون الى أن يستعملوا بدلا منها كلمة معروفة يلحظ فيها معنى السلوك المهذب ، كلمة « الجنتلمان » ، في حين يستعمل الفرنسيون الكلمة التي تدل عندهم على الذكاء . وهذه فروق قد تبدو طفيفة لاول وهلة ، ولكنها عميقة الدلالة على خصائص كل شعب .

أما نحن فخلطنا بين « المثقف » كانسان مهذب أو « أديب » كما كان قدماؤنا يقولون ، وبين المثقف كحاصل على شهادة ، والمثقف كصاحب مهنة عقلية ، يدل على أننا نعيش أزمة ثقافية شاملة اختلطت فيها المظاهر بالحقائق ، والوسائل بالغايات . واذا كنا ــ بسبب هذا الاختلاط ــ لا نملك ثقافة بل ــ على أحسن تقدير ــ مشروع ثقافة ، وأذا كان مثقفنا في أحسن احواله مشروع مثقف ، فاننا ــ بداهة ــ لا يمكن أن نستغني عن أصحاب المهن العقلية ، الذين نسميهم جماعة المثقفين .

ولكن هذه التسمية المزدوجة : المثقف كانسان يحمل هموم البحث عن إسلوب أمثل للحياة الاجتماعية والمثقف

كعضو فى مهنة عقلية ـ تعكس ازمة أعمق . أحد جوانب هذه الازمة هو اننا نعلق على أصحاب المهن العقلية بالذات أملنا فى اعادة بناء حياتنا الثقافية ، أو اعادة بناء حضارتنا . وربما كان ذلك دليلا على أن الفئات الاخرى من المجتمع تشعر بالحيرة فى التيه الحضارى الذى يحيط بها ، ولا تجد حلولا مناسبة للخروج من هذا التيه ، وربما كان دليلا على أن فى حضارتنا ميلا متأصلا الى تغليب جانب الفكر على جانب العمل ، أو صدعا خطيرا يفصل بين الجانبين ، بحيث يصح القول ان لدينا ثقافتين : ثقافة المثقفين ، وهى الثقافة الوحيدة المعترف بها ، وثقافة الكادحين ، وهى التى أخرجناها عنوة واقتدارا من محيطها ، وسميناها الادب الشعبى ، وأخذنا نعاملها بعطف العظماء فوضعناها فى حضانة خاصة بها كالجنين الناقص النمو .

على أن الجانب الاشد خطورة فيما سمى بأزمة المثقفين هو النظر اليهم ـ كأفراد لا كجماعات ـ على أنهم أصحاب مهن . وهذه قمة الاختلاط والبلبلة . فاذا كانت المهن العقلية تضم اكبر عدد من المثقفين فهذا لا يمنع من النظر اليها كمهن ، والى المثقفين كمثقفين . مهن التعليم والمحاماة والصحافة وغيرها مؤسسات اجتماعية كسائر المهن ، تشارك فى بناء المجتمع وتدعيم قيمه ، أى فى بناء ثقافته والتمتع بها ، فهى كغيرها من المؤسسات الاجتماعية صانعة للثقافة ومستهلكة لها فى الوقت نفسه . أما المثقفون كأفراد ـ فى هذه المهن وغيرها ـ فهم أشخاص لا يتميزون عن غيرهم من اخوانهم الا بأنهم أكثر تفكيرا فى ماضى هذه الامة وحاضرها ومستقبلها ، وانشغالا

بهمومها ، وبحثا عن حلول لمشاكلها . فهم جديرون الا ينظر اليهم بشك وارتياب ، ان لم تيسر لهم سبل التفكير والبحث من مكتبات ومعامل ومجالات للنشر وتبادل الاراء ولكن الذى حدث كان عكس ذلك تماما . فقد أخذنا أفكارا عن الاشتراكية الماركسية لم نحسن فهمها ولم نعرف أصولها . فاخذنا عنها أن المثقفين ـ اى اصحاب المهن العقلية ـ لا يكونون طبقة ، لانهم ليسوا طرفا أصليا فى عملية الانتاج كالعمال والراسماليين ، ومن ثم فهم لا يعيشون الا على خدمة الطبقة السائدة . ومع أننا لم نمض مع النظرية الى نهايتها فننادى بسيادة طبقة على طبقة ، كما جهلنا بدايتها وهى أن العمل سابق على الفكر، والمادة سابقة على الروح ، فقد اعتبر المثقفون خداما للسلطة . ولحق بأصحاب المهن العقلية كل مثقف مهما تكن مهنته . والغى دور المثقف الرائد . وغدونا كمن يسير على راسه . فلا عجب اذا بدت لنا الاشياء كلها مقلوبة ، وصرنا الى حال أنكرنا فيه حتى أنفسنا . وعسى أن نكون قد تعلمنا الا حياة ولا مستقبل بدون ثقافة ، والا ثقافة بدون مثقفين ، افرادا ومجتمعين .

التعليم

قد يدهش المرء لقلة اهتمام جمهور الناس عندنا بمشكلات التعليم . فاذا جعلنا الصحف مقياسا وجدنا الامر لا يعدو اخبارا مختصرة عن قرب ظهور نتيجة الثانوية العامة ، ثم نسب النجاح فى أقسامها المختلفة ، ثم يبدأ مهرجان الالتحاق بالجامعة ، والمرحلة الاولى والثانية والثالثة ، وبعض النكت التى يتحفنا بها رسامو الكاريكاتير ثم تهدأ الحال ، فيما يتعلق بالتعليم ، الى العام التالى .

فهل يعقل أن يكون هذا هو مقدار اهتمامنا باعداد الاجيال القادمة من أبناء هذا البلد ؟

أما اذا انتقلنا الى داخل البيوت فسوف نلقى عجبا فظاهرة الدروس الخصوصية قد عمت وطمت ، والدروس الخصوصية لها غرض واحد وهو اعداد التلميذ للامتحان، وكثيرا ماينحصر جهد المدرس فى تحفيظ المواد للتلميذ ، وكأنه عاجز عن أن يقرأ وحده من الكتاب ويحفظ . وقد أصبح عندنا نوعان من التعليم : التعليم العام المعروف ، وشيء يسمى مدارس اللغات ، ورث المدارس الاجنبية القديمة ، الا أن سنته الدراسية أقصر ويومه أقصر كذلك ، فهو لا يمتاز كثيرا عن التعليم العادى ، ولكن المصروفات الباهظة التى يدفعها أولياء الامور تلقى فى روعهم أنهم لم يبخلوا على أبنائهم وبناتهم بادخالهم أرقى

المدارس ، كما ترشحهم للدخول فى زمرة الطبقة الممتازة، كيفما كانت هذه الطبقة .

ومن المشكلات الكبيرة فى فلسفة التعليم ونظمه ومناهجه ان آثارها لا تظهر الا بعد مدة . فما نزرعه اليوم لا نحصده الا بعد عشر سنين أو عشرين سنة . على أن حالة الخريجين الجدد تثبت أن محنة التعليم ليست بنت اليوم ولا الامس القريب . لقد كان شعار « التعليم كالماء والهواء » الذى أطلق مع بداية العقد الخامس فاتحة عهد جديد فى نظام التعليم . أصبحت المدرسة بوتقة انصهرت فيها جميع الطبقات ، ووجد أبناء الكادحين الفقراء الابواب كلها مفتحة امامهم فانطلقوا فى مراحل التعليم بحسب اجتهادهم وطموحهم . ولكن العبء الذى تحملته الدولة كان ثقيلا ، فتضخمت الفصول واختصر اليوم الدراسى ، ولم يكن ثمة مفر من هبوط بمستوى التعليم . كان هذا هو السبب الاساسى فى الجرى وراء سراب مدارس اللغات ، وظهور اقتراحات تدعو للعودة الى نظام المصروفات ولو بصورة جزئية ، ولم يحاول أصحاب هذه الاقتراحات أن يحسبوا مايمكن أن تجنيه الدولة من تحصيل المصروفات الدراسية ، فقد كان الغرض هو منع أكبر عدد ممكن من مواصلة تعليمهم بعد المرحلة الابتدائية .

فالذين يعزون مشكلات التعليم كلها الى المجانية العامة يفكرون فى أطار المدرسة القديمة ، التى كانت تتمتع بامكانيات طيبة بالنسبة الى عدد تلاميذها ، وهو محدود بالقدرة المالية لاولياء أمورهم . وقد جاء قرار

مجانية التعليم من خارج وزارة التعليم ، ففوجىء به رجال التربية ، وكان همهم كله منصرفا الى تحسين طرق التعليم ، ولم يكن أحدهم يملك فلسفة تربوية بالمعنى الصحيح ، ولا كانوا مستعدين لتبني الفلسفة الجديدة . وهكذا سارت مجانية التعليم سيرا مضطربا حتى انتهت الى ماتراه من ضعف وفساد .

لقد كانت مجانية التعليم تعتمد على فلسفة ذات شقين : تمثل الشق الاول فى المبدأ الداعى الى « تكافؤ الفرص » ، لتحقيق « العدالة الاجتماعية » . وكانت دعوة العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص هى الدعوة التى تبنتها كثير من الاحزاب والجماعات السياسية لمكافحة « الثالوث المدنس » ، كما سمى فى تلك الايام ، ثالوث الجهل والفقر والمرض . واما الشق الثانى فقد كان استمرارا لفكرة « التحديث » اى الخروج بالمجتمع المصرى من ظلام القرون الوسطى الى نور العلم والحضارة . وكان يمكن أن يتحقق هذان الغرضان على وجه مرض لو أن هذه الثورة التعليمية استندت الى جهد شعبى ، وشملت عملية التعليم نفسها ولم تقتصر على حق دخول المدارس والجامعات .

ان الجهود الشعبية فى مجال التعليم لم تكن جديدة على هذه البلاد . وقد ارتبطت من أول ظهورها بالمسعى الوطنى ، فانتشرت الجمعيات التعليمية فى أرجاء الوطن المصرى ، وكان ممن شاركوا فيها عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية من بعد . وزاد نشاط الجمعيات التعليمية حين سيطر الاستعمار البريطانى على ادارة شئون

البلاد ، ومنها شئون التعليم ، ولكن نشاط هذه الجمعيات بقى محصورا فى أبناء الطبقة المتوسطة ، وكان الاهتداء الى صيغة تضمن مشاركة الشعب كله امرا ممكنا وان لم يكن سهلا . ولكن الذى حدث هو أن الدولة بقيت مسئولة عن التعليم كله تقريبا ، وحين تبنت نوعا من التنظيم الاشتراكى شعر عامة الناس بأنهم غير مسئولين عن شىء ، وان الدولة ستوفر لهم كل شىء . ومع أن ميزانية التعليم تضخمت سنة بعد سنة فان الدولة لم تكن لتستطيع ، بدون مشاركة شعبية ايجابية ، أن تحقق الثورة التعليمية المنشودة .

لقد كانت المدرسة القديمة مكانا مناسبا لاعداد الموظفين والمهنيين اللازمين لنظام اجتماعى شبه مغلق . اما حين أصبح الهدف من التعليم هو ترقية الشعب كله فقد كان الوضع يتطلب مدرسة من نوع آخر : مدرسة بسيطة البناء ، رخيصة التكاليف ، يساهم فى انشائها أهل القرية او الحى ، بتبرعاتهم اليسيرة او بعمل أيديهم . وكان يمكن أن تعتمد جزئيا على العمل التطوعى من القادرين على التدريس من ابناء القرية أو الحى . وكان ذلك يستلزم ان ترتبط بتنظيمات شعبية محلية ، أى انها كان يجب أن تصبح جزءا من مسعى قومى واسع النطاق .

حين عدم هذا المسعى ، وبقيت المدرسة القديمة على حالها ، لم تستطع أن تجارى الاوضاع التعليمية الجديدة ، فتناقصت كفاءتها بسرعة ، كما أن الجماهير اخذت تفقد حماستها للتعليم ، فتحول عندها الى عملية روتينية محضة ، لا هدف لها الا الحصول على شهادة ، تؤهل صاحبها للانضمام الى جيش العاطلين الذين يملئون

مكاتب الحكومة والقطاع العام .

والتعليم كخطوة حاسمة نحو تحديث البلاد كان يتطلب نظرة جديدة مبدعة الى مناهجه وطرقه . ولكن الذى حدث هو أن رجال البيداجوجيا الذين تولوا قيادته فى أهم مراحله شغلوا وشغلوا الناس معهم بمفهومهم الخاص للتحديث . فنقلوا أساليب تربوية توهموا انها احدث ماوصل اليه اقطاب التربية فى أمريكا ، وهكذا رأينا الآباء والامهات يمسون ويصبحون فى احاديث ونوادر وحكايات عن طريقة شرشر ، حتى عقدت لها المؤتمرات وتبودلت الاتهامات ، فأساتذة التربية يتهمون المعلمين بالجهل وسوء النية والمعلمون يتهمون أساتذة التربية بالبعد عن الواقع والتقليد الاعمى للأساليب الغربية . والامر أخطر من ذلك . فلو أريد أن نكون التعليم تحديثا حقيقيا لاستصحب تعليم الصغار حركة جادة نشيطة لتعليم الكبار ، حتى تقرب الشقة بين الآباء والابناء ، وحتى تصبح مشكلات التعليم جزءا من اهتمامات الناس الحقيقية ، وتطوع مناهج التعليم لظروف البيئة وحاجات الجماهير . فاذا كان قد قيل أن التعليم كالماء والهواء ، فلا ينبغى أن ينحصر مدلول هذه العبارة فى معنى قانونى محض كمجانية التعليم . التعليم كالماء والهواء حقا وبدون حاجة الى تشريع ، لانه وظيفة أساسية يقوم بها كل مجتمع بطريقته الخاصة ، ولكن الفكر التعليمى المتطور الخلاق يبحث دائما عن تعليم أفضل ، يزيد كفاءة أفراد المجتمع فى التعامل مع بيئتهم وعصرهم ، والتعليم الافضل لا ينحصر فى مواد معينة وأساليب معينة لتوصيل المعلومات الى الاذهان ، ولكنه يرمى أولا الى تعديل فى القيم وانماط السلوك .

التكنولوجيا

أذكر ان كاتبا عراقيا نشر فى الثلاثينيات قصة عن رجل بدوى حطم جهاز راديو ليخرج الانسان الصغير الذى بداخله ، انسان ، على الرغم من صغره غير المعقول ؛ يتكلم ، ويغنى ، ويقرأ القرآن . ولا أستبعد أن تكون هذه القصة واقعية ، فقد كنا نسمع بنوادر مشابهة لها فى ريفنا . ولكى أكون صريحا معكم أعترف بأننى حين انتقلت من القرية الصغيرة التى نشأت فيها الى عاصمة الاقليم ؛ وكنت صبيا فى العاشرة ، وحدثنى أترابى الجدد فى المدينة أن عندهم دارا مظلمة تمر فيها صور الناس والحيوان على الحائط ، وتتحرك كما يتحرك الناس والحيوان ، وهناك سيارات وقطارات أيضا — حسبتهم يسخرون منى ، ولم أصدق حتى رأيت هذه العجيبة بعينى رأسى .

وكنا كلما دخلنا مدرج الطبيعة والكيمياء ، صحنا بالاستاذ : « تجربة يابيه ! » فيضع على المنضدة الكبيرة اناء زجاجيا مملوءا بالماء ، فيصب فيه قطرات من سائل ما : فيخضر أو يصفر ، ثم يصب قطرات من سائل ثان ، فيزرق أو يحمر ، ثم يصب قطرات من سائل ثالث فيعود كما كان ماء لا لون له . وبعد ذلك فقط يمكنه أن يبدأ الدرس . فلا أذكر ان هذه التجربة وامثالها كانت لها صلة بدرس الطبيعة او الكيمياء . اما الدروس

التى كنا نستذكرها ونمتحن فيها ونجوز الامتحان سنة بعد سنة فقد كانت تشتمل على اشياء مثل : كيف يعمل الجرس الكهربائي ، وكيف تعمل آلة التلفون ، ولا أذكر اننا ركبنا جرسا او اصلحنا جرسا ، وكان الجرس الكهربائي ترفا ، ومعظم البيوت لم يكن فيها كهرباء . اما التلفون فما زلت اذكر كيف اتفق لى ، حوالى هذه المدة نفسها ، ان قريبا لى يعمل فى هندسة الرى ناولنى السماعة لاكلم شخصا ما ، فامسكتها لاول مرة فى حياتى، ومع انى وضعتها الوضع الصحيح ، وسمعت صوتا بالفعل ، فاننى لم افهم منه حرفا واحدا ، انا الذى كنت افهم بسهولة كلام القره جوز .

مضى على هذه الاحوال خمسون سنة تقريبا . وتغيرت اشياء كثيرة ، لحفيدتى التى تبلغ الخامسة تستطيع ان تثرثر مع الناس فى التلفون ، وابنائى يصلحون جرس الباب ، واذا تعطلت السيارة تكلموا عنها كلاما لا افهمه ، ولعلهم يفهمونه ، فانا لا اميز بين مايحتاج الى الميكانيكى وما يحتاج الى الكهربائى لاصلاحه . ومع ذلك فأرجو ان تصدقونى القول ــ والكلام هنا لجيل الابناء : هل فكرتم مرة ان تبنوا بايديكم سيارة او جهاز راديو ، كما رأيت الفتيان يفعلون فى امريكا ، وكم مرة بحثتم بطريقة منظمة عن السر فى ان هذه القطعة من الارض لم تعد تنبت ، او هذه الآلة لم تعد تعمل ، وكم مرة نظرتم بدهشة ساذجة الى مبتكرات العلم ، كما كنا ننظر الى تبدل لون الماء ؟

اذا شعرتم ــ ابنائى الاعزاء ــ بالحيرة او العجز امام هذه المبتكرات فاننى لا الومكم . لاننا لم نأت العلم من بابه . وباب العلم هو ان ننظر ونفكر ونعمل . ثم ننظر

ونفكر ونصحح العمل . والعلم نظريات صدقها الاختبار ، ولكن أهم من حفظ النظريات المختبرة ان نعرف كيف نطبقها ولماذا وفيم ، وأهم من هذا أن نعرف كيف بنيت النظرية ، وكيف ثبتت صحتها .

اذا عرفنا كيف نطبق النظرية العلمية استطعنا ان ننتج ، واذا عرفنا كيف بنيت النظرية واختبرت استطعنا ان نمتلك العلم ونواصل مسيرته . الاولى هى التكنولوجيا والثانية هى العلم البحت ، ومن خصائص العصر الحديث أنه ربط بين هذين الجانبين ربطا محكما ، فتحققت بفضل هذا الربط قفزة صناعية هائلة ؛ تأتينا بالجديد كل يوم . ولكن الربط بين الجانبين لايعنى اهمال العلوم النظرية ، ولا أن التكنولوجيا تحتاج فى مستوياتها العادية الى تدريب علمى متقدم . فلا تزال العلوم النظرية ترتاد آفاق الطبيعة والكون ، حيث لا تبدو امكانية للتطبيق العملى المباشر . ومعلوم أن برتراند رسل ، مبتكر الرياضة الحديثة ، لم يكن مهندسا بل فيلسوفا ، وأن الدراسات الاولى عن الذرة جرت فى اطار الفلسفة والعلوم البحتة ، كذلك لا تزال التكنولوجيا عماد التدريب فى معاهد اعداد الفنيين ، الذين لا يحتاجون الى قدر كبير من العلم النظرى .

وانما يتم الربط الوثيق بين العلم والتكنولوجيا فى الجامعات التكنولوجية ، وتقابلها كليات الهندسة عندنا . فهذه الكليات أو الجامعات تفسح للدراسات النظرية مجالا كبيرا فى برامجها . بل ان نشاطها العلمى لا يقتصر على العلوم الرياضية والطبيعية . فمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا — وهو أكبر جامعة تكنولوجية فى الولايات

المتحدة الامريكية ــ يشتمل على مركز للدراســـــات السوفيتية ، تدرس فيه السياسة السوفيتية والاقتصاد السوفييتي ، والادب السوفييتي ايضا ، ومركـــز آخــر للدراسات اللغوية ، عمل فيه نعوم تشومسكي أكبر علماء أمريكا في اللغويات اليوم ، وطور نظريته المشهورة فى النحو التوليدى ، وانتهى به الامـــر ــ وهو الذى بدأ دراساته اللغوية ضمن مشروع كبير للترجمة الآلية ــ الى أن أصبح صاحب نظرية فى طبيعة العقل الانسانى تلحقه بالفلاسفة .

هناك اذن تكنولوجيا عالية وثيقة الارتباط بالعلم ؛ وعلم لم تنقطع صلته بالفلسفة ، وهناك تكنولوجيا عادية تطبق ما اكتشفته التكنولوجيا العالية .

التكنولوجيا العالية تحدد المشكلات ، وتبتكر الحلول. والتكنولوجيا العادية تتعامل مبـــــاشرة مع الطبيعة ، لتحقيق أغراض الانسان .

التكنولوجيا العالية تخترع الآلات ، والتكنولوجيـــا العادية تديرها .

ومن هذا يتضح أن التكنولوجيا العادية موجودة فى كل مكان . الفأس والمحراث والشادوف فى زراعتنـــا التقليدية تكنولوجيا . المنشار اليدوى والفارة والازميل لدى النجار العادى تكنولوجيا . ولكن هذه تكنولوجيـــا تقليدية لانها تعتمد على التقليد وحده ، تلقاها جيـــل عن جيل منذ آلاف السنين . الفلاح يعلم ابنه كيف يمسك الفأس ويهوى بها على الارض ، كيف يمسك الطنبــــور وكيف يقول « عا » للجاموسة . والنجار يعلم صبيه كيف

يرسم خطا مستقيما على الخشب ، وكيف يتكىء على قطعة الخشب بساعده الايسر ويحرك المنشار او الفارة بذراعه اليمنى . كانت هذه الادوات كلها ، منذ بضعة آلاف من السنين ، مبتكرات تكنولوجية مهمة . ولاسباب قد لايمكن تحديدها بدقة اقتصر الناس على التكنولوجيا العادية ، ولم يعودوا يفكرون فى تكنولوجيا عالية ، ولا في علم ولا فلسفة . بعبارة أخرى اكتفوا بأنهم يعرفون كيف يستعملون هذه الادوات وفى أى الاغراض يستعملونها . ولم يحاولوا أن يعرفوا كيف تعمل الالة نفسها ، ليحاولوا أن يبتكروا آلة أفضل . استناموا الى الكسل ، وتوهموا أن المجانين وحدهم هم الذين يسألون مثل هذه الاسئلة .

هل آن لنا أن نفيق من هذه الاوهام . هل آن لنا أن نفهم أن مشكلتنا الكبرى ليست هى أن نحل المنشار الميكانيكى محل المنشار اليدوى ، والجرار محل المحراث، فنحن مع الجرار والمنشار الميكانيكى لا نزال نعمل بالتكنولوجيا العادية لاننا مقلدون ، وانما مشكلتنا الكبرى هى ان نتعلم كيف ننظر ونفكر ونعمل ، ثم كيف ننظر ونفكر ونصحح العمل . مشكلتنا الكبرى أننا لا نزال فقراء فى التكنولوجيا العالية . يمكننا أن نسافر بالطائرات ونحرث حقولنا بالجرارات ونقدم لاطفالنا اللعب الالكترونية ، يمكننا أن نغرق أنفسنا فيما نسميه التكنولوجيا المتقدمة ونظل مع ذلك متأخرين ، الى أن نعرف أن لدينا شيئا اسمه أكاديمية العلوم أو شيئا اسمه مجلس البحث العلمى . ومن هناك يمكن أن يبدأ التقدم .

الميكنة

في برنامج اذاعي ناجح موضوعه « المعجم الحديث » قدم أحد علماء الزراعة شرحا موجزا « للميكنة الزراعية » وضح فيه بالامثلة العملية كيف يساعد استخدام الآلات الميكانيكية في الزراعة بدلا من الالات اليدوية والحيوانات الزراعية ، كيف يساعد هذا التغيير على اختصار الوقت والاقتصاد في العمالة . وبما أن الوقت والعمالة هما أهم عنصرين في الانتاج والتسويق ، فان الزراعة الميكنة تتغلب بسهولة على الزراعة التقليدية ، وهذا هو الملاحظ فعلا عند المقارنة بين الانتاج الزراعي في البلدان المتقدمة ونظيره في البلدان المتخلفة ، فهو في الاولى اوفر وأرخص بالنسبة الى المستهلك ، وأجزل عائدا بالنسبة الى المنتج ، مع ثبات جميع العناصر الاخرى المؤثرة في الانتاج الزراعي .

لقد ظلت « الفلاحة » في أقطارنا العربية ، حتى عهد قريب ، مضرب المثل في المشقة والبؤس ، ولم تكن « ما أحلاها عيشة الفلاح » ونحوها الا تعبيرا عن مشاعر أناس ينظرون الى الفلاحين من نافذة القطار . بالنسبة للفلاح في مصر او الشام أو العراق ، الذي كان يكدح طول النهار ، وطول الليل أحيانا ، ليحصل على قوت يومه ، كان دخول الميكنة الزراعية ، ولو بصورة جزئية ، تخفيفا من عنائه ، بحيث أمكنه أن يحيا حياة أكثر

انسانية . وبالنسبة للاراضي البكر في بلاد مثل المملكة العربية السعودية ، أو لمشروعات الاستصلاح في البلاد العربية الاخرى ، كانت الميكنة الزراعية شرطا لازمـا للتوسع الزراعي السريع ..

ولكننا يجب الا ننسى ، فى أى حالة من هذه الحالات ، ارتباط الميكنة الزراعية ـ بل الميكنة عموما ـ بحالة العمالة كما وكيفا . فالحل الامثل فى منطقة ما قد لا يناسب منطقة أخرى ، بل قد تترتب عليه مشكلات أشد خطرا . ان العمالة فى المنطقة العربية بوجه عام ، عزيزة فى الوقت الحاضر ، حتى فى تلك الاقطار التى تشكو من تضخم عدد السكان . وهذه القلة النسبية فى كم العمالة راجعة على مايبدو الى التوسع الكبير والسريع فى الاعمال العمرانية ، وهو توسع لا يمكن أن يستمر بهذا المعدل او قريب منه . واذن فمن المرجح أن يوجد فائض عمالة فى وقت قريب ، وأن تواجه الاقطار المصدرة للعمالة باعداد وفيرة من العمال العاطلين ، وهنا تصبح المشكلة هي « ايجاد فرص عمـل » لهؤلاء ، بدلا من استخدام الآلات لتحل محلهم .

وهناك تغير اجتماعى مذهل يجرى الان فى كثير من الاقطار العربية . وهو تضخم اعداد الوظـائف المكتبية ووظائف الخدمات « الياقات البيضاء كما تسـمى » بالقياس الى الوظائف الانتاجية . وهذا التحول ماكان ليتم لولا احلال الآلة « وان بصورة جزئية وقليلة الكفاءة غالبا » محل الجهد الانسانى . على أن التعويض لم يكن كاملا ، ومن هنا نقص الانتاج عن الاستهلاك ، وتراكمت الديون الاجنبية . « قد يذكر التسليح فى هذا المجال ،

ولكن نفقات التسليح لا تمثل الا قسما محدودا من تلك الديون » ، ومن ناحية أخرى كانت قلة أعداد الحرفيين وازدياد الطلب عليهم مغرية لهم بالتغالى فى الاجور ، واذ بلغوا حد الكفاية الاجتماعية بعمل ساعات اقل ، لم يجدوا مايدعوهم للعمل ساعات اكثر . وهـــكذا دب التراخي في صفوف العمال ، وضعفت انتاجيتهم ، وليس هذا هو العامل الوحيد بطبيعة الحـال ، ولكنه عامل مهم .

والميكنة الجزئية ، مع نقص الانتاج بالنسبة للاستهلاك، وما أدى اليه ذلك من ارتفاع أسعار المنتجات الزراعية كغيرها ـ يمكن أن يفسرا ولو جانبا من هذه الصـــورة الجديدة للفلاح المصرى : ذلك الانسان الذى يقضى معظم الليل ساهرا فى مشاهدة التلفزيون ، ولا يعمل أكثر من ساعتين فى اليوم « ليست هذه شهادتى ، ولكنها شهادة عدد من كبار المسئولين عن الزراعة والرى فى مصر ، ومعهم أديب وثيق الصلة بالقرية المصرية ، لم يبد اى تحفظ على هذا القول » .

ان الانســان الذى يحيله الجهد البدنى الشاق الى شيء شبيه بالحيوان الاعجم ، انسان جدير بالعطف ، وبأن ترد اليه كرامة ألانسان ، ولكن الانسان الذى يفقد حماســته للعمل ، ومتعته فيه ، ويستمرىء البطالة والكسل ، ليس أقل شبها بالحيوان ، الا انه حيوان بليد .

وهذا ينقلنا الى الجانب الآخر من مشكلة العمالة ، وهو « كيف العمالة » .

فليس من شأن « الميكنة » ، فى الظروف المناسبة ،

ان تقلل انتاجية العامل أو انتاجية المجتمع ككل . بل المعروف أن انتاجية العامل الامريكي والعامل الياباني أعلى من غيرهما بكثير ، مع أن « الميكنة » ، ولا سيما في أعلى صورها وهي « الميكنة المبرمجة » متقدمة في هذين البلدين تقدما كبيرا بالنسبة الى سائر بلدان العالم « المتقدمة » .

ولا يمكن أن يعزى هذا التفوق المزدوج الى عامل واحد . فلاشك أن قيام المجتمع على مبدأ التوسع الاقتصادي يأتي في المحل الاول . ولكن العامل الثاني ربما كان هو نوع التعليم .

والمتخصصون في دراسة اليابان الحديثة يرجعون نهضتها الى سببين مهمين : أحدهما التعليم ، وثانيهما محافظتها على تقاليدها الاصيلة ، ولا سيما في مجال العمل . أما التعليم في معظم أقطار العالم العربي فليس مقطوع الصلة « بالميكنة » فحسب ، بل انه يكاد يكون بلا خطة ولا هدف على الاطلاق .

فان تقول انك ستنشيء كذا مدرسة ، وانك ستستوعب جميع من هم في سن التعليم حتى مرحلة كذا ـ فليست هذه خطة ، ولا هذا هدفا . ان الغرض من التعليم يجب أن يكون واضحا ، ويجب أن يحدد بحاجات المجتمع وامكانياته ، وليس فقط برغبة ملايين الكادحين في أن يروا أبناءهم يجلسون على مكاتب ويلبسون ملابس نظيفة . حقا ان هذه رغبة مشروعة ، ولكنها تنتمي الى عصر غير هذا العصر ، فعصر « الميكنة » و « الميكنة المبرمجة » يجعل العمل المنتج نظيفا ومريحا بقدر ماهو

أكثر انتاجا ، وهو أيضا يتطلب تعليما غير ذلك التعليم الذى يحول الطاقات الانسانية الى دمى جالسة على مكاتب !!

قد تكون العقبة الاساسية هى أن التعليم الذى يناسب العصر يتطلب نفقات باهظة ، يقدر عليها — ويبذلها بسخاء — بلد كالمملكة العربية السعودية ، ولكن لا يقدر عليها بلد كمصر . وهنا يجب أن نعود الى « حاجات المجتمع وامكانياته » ، « فالميكنة » يمكن أن تستخدم فى قطاع محدود من المشروعات ، يعد لها العدد الكافى من الفنيين الاكفاء ، بينما توجه جهود المنتجين — من ناحية أخرى — الى اعمال تعتمد على المهارة اليدوية أو الذوق الفنى ، وهى اعمال تكاد تنقرض فى بلادنا .

نعم ! ان هذا العصر هو عصر « الماكينة » ، ولكننا

اذ نقتحم هذا العصر ، لنحافظ على بقائنا ، لا نملك الا أن نعتز بلمسة يد الانسان فى كل شىء ينتجه . ان صناعة السجاد اليدوى لا تزال قائمة رغم توفر السجاد الميكانيكى ورخص اثمانه نسبيا ، وفى مصر اليوم قرية تعلم أهلها صناعة السجاد بفضل جهود مهندس فنان استطاع ان يستخرج المواهب الفنية الكامنة فى نفوس تلاميذه الفلاحين ، فأصبحوا بحيث ينتجون تحفا فنية تقدر — من الناحية الاقتصادية — بأثمان غالية ، ولايزال الناس فى المملكة العربية السعودية يستعملون المباخر المحلية المصنوعة باليد ، ويعجب بها كل من يراها ، لانه يرى فيها لمسة يد الفنان الصانع ، بينما ينظر الىالمباخر المنتجة فى اليابان — وهى أكثر انضباطا من حيثالاشكال والنسب — على أنهـا أشياء بلهاء لا معنى لوجودها .

وقبيح بنا ، على كل حال ، أن ننجر وراء « الميكنة » و « الماكينة » بدون وعي . ان الجرار الميكانيكي اختراع عظيم ، ولكني أتساءل : هل استفاد الفلاح المصري حقا من الوقت الذي وفرته له هذه الآلة ، حين قضاه أمام آلة أخرى وهي التلفزيون ؟ ولا أقصد بهذا أن التلفزيون مضر دائما ، أو لا يمكن ان يكون مفيدا ؛ بعبارة أخرى : هل من الضروري لكي نميكن الزراعة ـ مثلا ـ أن نميكن معها كل شيء في حياتنا ؟

وسؤال آخر قد يبدو بعيداً ، ولكنه متصل بالسؤال السابق أوثق اتصال : اننا نسمي أنفسنا « العالم الثالث » ، فهل هذه كتسمية « الدرجة الثالثة » في القطار مثلا ، بمعنى أننا نسير في نفس الاتجاه ، ولكن مكاننا هو المؤخرة ؟ ان « العالم الثالث » لم يثبت أي وجود مستقل له الا في عالم السياسة ، ولفترة قصيرة . ولكن اين هو في دنيا الفكر ؟ اين هو في دنيا الاقتصاد ؟ أين هو في العلم ؟ أين هو في الصناعة والزراعة ؟ أين هو في أسلوب الحياة ؟

الإعلام

« الاعلام » كلمة جديدة نسبيا على حياتنا ، فلم يكن في اى بلد عربى وزارة للاعلام قبل ثلاثين سنة تقريبا ، وكان أول أسم ظهرت به وزارة الاعلام فى أفق الحياة المصرية هو « وزارة الارشاد القومى » . ثم عدل عنه الى الاسم الجديد ، وغزا هذا الاسم جوانب أخرى من مؤسساتنا الثقافية ، فسمى قسم الصحافة فى جامعة القاهرة قسم الاعلام ، ثم أستقل الاعلام بكلية خاصة ، وانشئت على نسق ذلك القسم اقسام كثيرة اخرى فى معظم الجامعات العربية . واشتد اقبال الشبان والشابات على هذه الاقسام لانها تهيىء لهم العمل فى الصحافة والاذاعة والتلفزيون ، فضلا عن أقسام العلاقات العامة فى الوزارات والشركات ، فينالون الشهرة فى أسرع وقت ، ويعقدون صلات ممتعة ومفيدة بعدد كبير من الشخصيات المهمة فى المجتمع ، هذا الى مزايا السفر وغيره . فأين هذا من الاقسام الاخرى فى كليات الآداب ، حيث تلوح مهنة التدريس بمتاعبها وهمومها بعد مشوار طويل شاق ؟

بربك أيها الشاب : أليس هذا هو مايغريك فى كلية الاعلام أو قسم الاعلام ؟ ان رجل الاعلام فى نظرك كالمغنى الحديث الذى يمسك بالمكروفون على بعد بوصتين من فمه ، جهد قليل وعائد كبير ، فمن يفضل

عليه وقفة المغنى القديم ، يشغل رئتيه كالمنفاخين حتى يبلغ صوته آخر الصالة ؟ ولكنك ــ عزيزى الشاب ــ قد لا تعلم أن عمل الاعلامى يمكن أن يكون اشق من عمل المدرس ، بل هو كذلك فى العادة ، وكثير منسه يتم بعيدا عن أعين الجمهور . وهو ــ على كل حال ــ لايختلف اختلافا جوهريا عن التدريس .

فالاعلام نوعان : اعلام رسمى ، وهذا هو معنساه الاصيل الذى دلت عليه عبارة « الارشاد القومى » وان لم تف بهذا المعنى كله ، ولعل ذلك كان سبب العدول عنها ، الى جانب ثقل هذه التسمية على نفوس كثير من الناس الذين يرون أنهم فى غير حاجة الى « ارشاد » ، وان كانوا يطالبون باعلام . فالاعلام الرسمى صلة بين أجهزة الدولة والخارج ، سواء أكان هذا الخارج هو مواطنو الدولة نفسها أم دولا أخرى أم مواطنى هذه الدول . ولعلك تلاحظ أن مهمة هذا الاعلام الرسمى بالغة الخطورة باهظة الاعباء .

ولكنك تقصد ــ ولا شك ــ النوع الثانى من الاعلام ، وهو هذا الذى تقوم به الصحافة والاذاعة والتلفزيون . فلعلك تسأل نفسك : هل العمل فى هذه الجهات يتطلب معرفة بحرفية اخراج الجريدة أو اعداد البرنامج الاذاعى أو التلفزيونى فحسب ، أم تراه يتطلب ، قبل ذلك ، علما بالمادة التى تقدم ، واستشعارا لاهميتها ومناسبتها؟ فان كانت هذه الاخيرة فان عمل الاعلامى لا يقل عناء عن عمل المدرس ، بل هو فى الحقيقة نوع من التدريس معروض للقارىء أو السامع او المشاهد ، على اختلاف

أعمارهم وثقافاتهم ، فانت تشفق اشد الاشفاق ان تقع في خطأ ما ، لان الخطأ أمام وسائل الاعلام ليس كالخطأ في قاعة الدرس ، فالغلطة الاعلامية ككذبة المنبر ، بلقاء مشهورة .

والحقيقة أن مانسميه وسائل الاعلام او أجهـزته ينبغي أن يسمى ، كما يسمى في اللغة الانجليزية مثلا ـ وسائط « أو وسائل » الاتصال الجماهيرية . فجهاز الراديو او التلفزيون كالصحيفة وكالكتاب واسطة لنقـل مادة ثقافية معينة من منتج الى متلق . هذه المادة يمكن أن تكون ، في الاحوال الاربعة جميعها ، مقدارا معينـا من المعلومات ، أو عملا فنيا ، أو موقفا فكريا ، فالفرق بين هذه الوسائط لا يرجع الى اختلاف المادة التى تقدم بل الى الاختلاف في كيفية تقديمها ، والمدى الذى يصل اليه كل منها . قد يطبع من الكتاب عشرة آلاف نسخة ، وقلما يتجاوز هذا العدد الا اذا كان كتابا مدرسيا أو ظهر في سلسلة شعبية ، فيقرؤه عدد لا يتجـاوز الخمسين الفا ، في حين أن الصحيفة يمكن أن تطبـع مليونا فيقرأها مليونان او ثلاثة ، أما الاذاعة والتلفزيون فقد يبلغ عدد من يستقبلون ارسالهما ملايين كثيرة . ولهذه الاختلافات آثار ثقافية بعيدة المدى ، ولـكنها يجب الا تحجب عنا الحقيقة الاساسية وهى انها جميعا ـ والتعليم مثلها ـ وسائل للتثقيف ، أو لغرس قيم المجتمع وانماطه الفكرية والسلوكية في نفس الفرد . فنسيان هذه الحقيقة يجعلنا نتصور أن التعليم لاشأن له بالثقافة ، وانما هو وسيلة للحصول على شهادة ، او ـ على احسن تقدير ـ لاتقان مهنة او حرفة ، وهكذا

تخرج لنا المعاهد كل سنة عشرات الالوف أو مئاتها من « المتعلمين الاميين » ، كما وصفهم المرحوم الدكتـــور محمد مندور . واشد من ذلك ضررا أن نتصور ــ بناء على تسمية وسائط الاتصال الجماهيرية بوسائل الاعلام ــ أن لها مهمة غير التثقيف ، فنتفضل على الاحاديث وما فى حكمها بركن نسميه « البرامج الثقافية » ، وتبقى سائر ساعات الارسال لشيء أو أشياء أخرى ، نسميها أو لا نسميها ، ولكننا لا نفترض ان لها صلة بالثقافة ــ مع انها ، ايا كان نوعها ــ تمثيليات او موسيقى او اغانى حتى اعلانات ــ ثقافة مثل هذا الحديث الجاف . وايا كان نوع المادة الثقافية نفيها الجيد والردىء : والمعايير الثقافية التى ينبغى أن تنصب لها واحدة سواء أكانت هذه المادة حديثا ادبيا أم فقرة ألعاب أكروباتية .

وينبغى الا تغيب هذه الحقيقة عن أذهاننا حين نفكر فى التلفزيون على وجه الخصوص . فقد أسمى هذا الجهاز الصغير هو معلم البيوت الاول . فهو يجمع بين سعة الانتشار وقوة التأثير . وقوة تأثيره ترجع الى أنه يخاطب العين والاذن معا ، ويخاطبهما بطريقة مدروسة تخدر وعى المشاهد ، ولعل من خصائصه أيضا ــ كما يلاحظ عالم الاتصالات الامريكى الكبير مارشال ماكلوهن ــ انه يجعل المتفرج شريكا فى المشهد ، وهذا اتم لقوة الايهام .

ومن الصعب أن يدرس تأثير التلفزيون فى مشاهديه بطريقة علمية تجريبية ، وذلك لاسباب كثيرة : منها أنه لا يمكن عزل هذا التأثير عن المؤثرات الاخرى ، ومنهــا ان تأثيره فى انماط التفكير والسلوك لا يحتمل أن يظهر

الا بعد مدة طويلة . ولذلك فلابد لنا من الاعتماد على الملاحظات العادية التى تتعلق بهذا الموضوع . ولعل أولى هذه الملاحظات واقلها تأثرا بالميول الشخصية هى ان كثرة ساعات الارسال ، وملء القسم الاكبر منها بالحلقات والتمثيليات والافلام يشغل كل مالدى المشاهد من وقت بعد أن ينتهى من أعماله الضرورية ، فلا يبقى للكتاب أو حتى المجلة او الصحيفة فراغ كبير . نعم ان هذا يمكن ان يعنى اتساع مجال الاختيار امام انسان العصر الحديث ، ولكننا نلاحظ أن قسما كبيرا من مشاهدى التلفزيون هم من صغار السن الذين يميلون الى الاسهل ، وهؤلاء يفضلون أن يجلسوا أمام التلفزيون فى حالة سلبية محضة ، الا أن يجبروا على القيام لمذاكرة دروسهم مثلا . وربما كان كثير من الكبار الذين يغرمون بمشاهدة التلفزيون فى مستوى من القدرة على التذوق والحكم لا يفضل كثيرا مستوى صغار السن .

ان التلفزيون ، فى بلاد نامية كبلادنا ، يمكن أن يكون خيرا كبيرا كما يمكن أن يكون شرا مستطيرا . فقد دخل على محيط ثقافي ضعيف ، فمن الممكن أن يخطط له كجهاز تعليمي تثقيفى جاد ، فيساعد على ارساء قيم ثقافية صالحة ، ويقصر أمد المعركة ضد الجهل والامية، ويقدم أفضل الوسائل للتغلب على الازدواج اللغوى بين العامية والفصحى ، ويخدم أغراض التنمية من خلال البرامج التعليمية المتقنة . وتخيل كيف يمكن أن تكون هذه البرامج لو أستخدمت فيها بعض الحيل الفنية التي تنفذ فى برنامج « الفوازير » مثلا . أما اذا اتخذ التلفزيون وسيلة للتسلية أولا ، فلابد أن يتأثر بالمحيط فيكون سببا فى مزيد من الانحدار .

الأصالة

« الاصالة » كلمة محببة الى كثير من الناس . واذا شرع احدهم فى الحديث عن « الاصالة » فلابد ان يذكر كلمة اخرى وهى « المعاصرة » . ولا اظن ان لغة من لغات الارض تحتوى على كلمتين تماثلان هاتين الكلمتين ، الا أن تكون اللغة الصينية التى لا أعرفها ، وانا لا اقول هذا على سبيل الهزل المحض ، فالواقع ان أمة الصين هى أشبه امم الارض ، فى عصرنا هذا ، بأمة العرب ، من حيث آن لكلتيهما تاريخا عريقا فى الحضارة يحول بينهما وبين الاندماج الكلى فى حضارة الغرب ، ومن هنا يكون الحرص على الجمع بين « الاصالة » القومية ، وبين « المعاصرة » العالمية ، أو الغربية ان أردنا مزيدا من التحديد .

فـ « الاصالة » هى اذن ضرب من المحافظة على الذات او الدفاع عن النفس . والمحافظة على الذات سلوك جماعى وليس سلوكا فرديا فحسب ، ولولاه مانهض شعب للدفاع عن حقوقه أو ارضه . وقد يهزم شعب أمام قوة عسكرية اكبر ، وقد يتحكم الاجانب فى مقدرات بلاده ، بل قد يضطر الى الهجرة من وطنه ، ولكن غريزة المحافظة على الذات لاتموت فيه مادام الشعور بالانتماء يوحد بين أفراده . وهنا تصبح « الاصالة » هى خط الدفاع الاخير ، لانها تعنى الذاتية الثقافية

للشعب ، وهي جوهر وجوده ، فاذا بقيت أمكن ان يسترد كل مافقد ، أما اذا فقدت فلن يبقى مايسترد ولا من يسترد .

ولكن المشكلة الكبرى هى أن المدافع مضطر دائما الى ان يستعين باسلحة خصمه . واذا طبقنا هذه القاعدة على الصراع الثقافى قلنا ان الاصالة الثقافية تستلزم اتخاذ نفس الاسلحة الثقافية التى يمتلكها الخصم ، أى اقتباس ثقافته كليا أو جزئيا . وهنا يبدو كما لو اننا مضطرون ، لكى نحافظ على ثقافتنا ، الى أن نتنازل عن ثقافتنا ! هذه هى المشكلة التى نخفيها تحت اسم « المعاصرة » . واقول نخفيها لاننا نتجاهل التناقض الظاهر فى موقفنا ، كما لو كان مجرد الجمع بين « الأصالة » و « المعاصرة » كافيا للمحافظة على الاصالة ، أو كما لو أن « الاصالة » ـ أى الثقافة القومية ـ تستطيع ببساطة أن تدخل فى شركة مع الثقافة العالمية ـ أى الغربية ـ التى أنزلت بها الهزيمة تلو الهزيمة .

والذين يتوهمون أن الاصالة يمكن أن تصبح معاصرة عن طريق الجمع البسيط هم غالبا ممن يفصلون فصلا حادا قاطما بين الشكل والمضمون ، بين الاداة والعمل ، ولهم بعض العذر فى ذلك ، فأنا حين أخلع الثوب والعمامة وألبس السترة والسراويل وأضع القبعة كالافرنج أو أترك راسى حاسرا لا أشعر أن شيئا من حقيقتى قد تغير . وحين اطلق حمارى فى البرية واستخدم السيارة فى تنقلاتى لا اجد الا انى أفدت مزيدا من السرعة والنظافة « مع كثير من الوجاهة طبعا » ولكنى ما ازال

انا . وحتى فى مجال الفكر نفسه : نحن نطبع كتب التراث بآلات الطباعة الحديثة ، ونصدر الصحف والمجلات ونقول فيها مانريد ، ونبعث الاذاعات المسموعة والمرئية فى ارجاء البلاد حاملة افكارنا وهمومنا وآمالنا. ولكن هل صحيح انك تستطيع أن تستعير الشكل وتبقى على المضمون ؟

لا أحد ينكر ان المطبعة ـ والصحافة بالذات ـ كانت ذات اثر عميق فى تغيير اساليب النثر العربى ، ونظرة الادباء والجمهور الى طبيعة الادب ووظيفته . وقد جاءت الاذاعة بعد الصحافة بزمان طويل ، فوجدت السبيل أمامها ممهداً ، ومع ذلك كان لها تأثير قوى وعميق فى تطوير العلاقة بين اللغة الادبية واللغة المتكلمة . أما الاذاعة المرئية فيشعر الجميع اليوم بضخامة الاثر الذى تحدثه فى حياة الناس ، لافى لغتهم أو افكارهم فحسب .

والبحث فى استبدال الزى الافرنجى بالزى العربى ـ وخصوصا هذا الذى كنا نعرفه هنا فى مصر ـ يمكن ان يكون من امتع البحوث واكثرها فائدة أيضا . فالشيخ رفاعة الطهطاوى ، الذى ذهب الى فرنسا مع البعثة التعليمية الاولى فى عصر محمد على ، يصف الزى الافرنجى بأنه خال من الجمال . والحقيقة انك اذا أجريت مثل هذه المقارنة بنظرة موضوعية خالية من التحيز لم تملك الا أن توافق الشيخ رفاعة على ملاحظته . فالزى العربى بخامته الغنية التى تنسدل على الجسم ، وقصته المحتشمة التى لا تظهر تفصيل جسم الرجل بما قد يكون فيه من عيوب أو محاسن ، وخياطته

الدقيقة التى لاتخلو من زخرفة وقور يؤدى القطـــان فيها دورا مهما ، مع المقابلة العميقة الدلالة بين القفطان الداخلى والحزام بنسيجهما المصقول ولونهما الزاهى المقلم فى القفطان والمزركش دون مبالغة فى الحزام ، وبين الجبة الخارجية بلونها الخالص الداكن المطفأ ــ هذا الزى يكون صورة مثالية لشخصية الرجل العربى فى تلك الايام : أناقة فى اللفظ والســلوك مع عزة واحتشام . وكانت العمامة جزءاً متمما لهذا الهندام : شالها الابيض يدل على النظافة والعناية ، ويحمى من الحرارة ويحجب العرق . ولكن هذا الزى كان يستغرق فى لبسه وخلعه ، والمحافظة على نقائه وجمال مظهره وقتا وجهدا . ومن هنا كان التخلى عنه واتخاذ الزى الافرنجى اشارة الى تغير أساسى فى النمط الســلوكى للرجل العربى .

هذه الامثلة كافية لاظهار العلاقة الوثيقة بين الشكل والمضمون فى شتى النظم الثقـافية ، وليس فى الادب فحسب ، واذن فنحن لا نستطيع أن نجمع بين«الاصالة» و « المعاصرة » هذا الجمع الساذج . بل أن هذا الجمع ، الذى ينادى به المحافظون الجامدون فى هذه الايام ، هو اسوأ دفاع عن القديم الذى يتوهمون أنهم ســدنته والقائمون عليه . والحقيقة أن نظراءهم فى الجيل الماضى الذين كانوا يسمون انفسـهم « السلفيين » ، كانوا أكثر صراحة فى التعبير عن موقفهم ، وربما لأنهم كانوا أكثر وضوحا فى فهم هذا الموقف . لقد دافعوا عن الثقـافة التقليدية كما فهموها ، ورفضوا كل جديد وافــد من الغرب . ولكن الجديد استمر يفرض نفسه بمنطـــق

الاقوى . فكان التقهقر ، وكـــان الاعتراف بضرورة « المعاصرة » ، ولكن بشرط « الاصالة » . أى الاعتراف بضرورة الاخذ بشكل الحضارة الغربية ، مع الاحتفاظ بمضمون الحضارة العربية الاسلامية . وهذا المـــوقف الذى ينطوى على لون من خداع النفس ، كفيل بانهيار خط الدفاع الاخير للحضارة العربية الاسلامية . فان جوهر الحضارة لا يبقى مصونا فى صندوق مغلـق ، ولكنه سر خفى ، كسر الروح ، ينتشر فى كل خـلايا الجسم ، ويتغذى من كل ماتصيبه ، ويتأذى من كل مايصيبها . واذن فكيف السبيل الى بقاء جوهر الحضارة قويا فعالا ، كيف السبيل الى المحافظة على الاصـالة العربية ؟

ان الاصالة لا تعنى التقوقع والانطواء على الذات ، فهذا معناه الموت . كذلك لا تعنى الاصالة الثبـات على صورة واحدة من صور الحضارة ، فالحياة حركة دائمة ولو سألنا أنفسنا عما نقصده بالاصالة على وجه التحديد لاختلفت الاجوبة حتما . هل نقصد أن نبقى محافظين على صورة الحياة العربية الاسلامية فى القـرن الاول أو الثاني او الثالث للهجرة ؟ فقد اختلفت صورة الحياة العربية الاسلامية ، قليلا أو كثيرا ، من قرن الى قرن ، بل من جيل الى جيل . واختلاف صور الحياة يعنى اختلاف الثقافة . اذن فلا مفر لنا من أن نبحث فى تاريخ حضارتنا ونتعمق البحث ، كما نتعلم حضارة العصر الحاضر ، حضارة الغرب ، حتى نحسن العلم . وعندئذ فقط يمكننا ان نظهر من حضارتنا شكلا جديدا قادرا

على أن يعيش العصر ، ويتعامل مع ثقافة العصر ، تماما كما تعلم الغرب من أجدادنا العرب فى عصر النهضـــة الاوربية ، ورجع فى الوقت نفسـه الى التراث اليونانى يقتله بحثا . فابرز حضارة اوربية جديدة ، حضـــارة مبدعة بقدر ماهى اصيلة .

الانفتاح

لعله قد آن الاوان لكى نحاول فهم كلمة ظهرت فجاة فى حياتنا ، كما تظهر الوجوه الجديدة فى السنما ، ولكنها لعبت ، منذ أول ظهورها ، ادوار البطولة فى الافلام والمسلسلات ، ولا تزال ، بعد عشر سنوات من بدايتها الباهرة ، تشق طريقها الصاعد بين نجوم الكلمات ، غير آبهة لصيحات الادانة أو هتافات الاعجاب.
أريد كلمة « الانفتاح » . وهى كما تعلمون موضوع جدل ساخن بين رجال السياسة ورجال الاقتصاد . ولست من هؤلاء ولا هؤلاء . ولم ازل ــ منذ بدات هذه الاحاديث ــ فى خشية من التورط مع هذه الكلمات التى يغار عليها أهل الاختصاص . ولكننا ــ نحن الكتاب ــ نزعم أننا أصحاب الحق الاول فى الكلمات ، واننا حين نعير بعض هذه الكلمات بعض الوقت لارباب العلوم المختلفة لا نتنازل عن حقنا هذا ، فالكلمة ــ وخصوصا فى مجال العلوم الانسانية ــ تظل تلك الابنة البارة التى لا تنقطع عن زيارتنا لانها لاتزال مثلنا أبنة الحياة تتجول فى الاسواق وتخالط شتى طوائف الناس . ونحن نعرف عن بيئتها الاصطلاحية الشىء القليل او الكثير ولكننا نكون اكثر الفة معها حين نسير بلا كلفة بين الناس العاديين .

واختلاف الراى فى الانفتاح يبدو لنا أمرا مؤسفا ،

ولا سيما اننا لا ندرى على من يقع اللوم : على الانفتاح أم على طريقتنا فى التعامل معه . فنحن نمتاز عن معظم شعوب الارض بطريقة خاصة فى التعامل مع الكلمات، قد لا نلحظها نحن ولكنها تلفت نظر الاجنبى الذى يخالطنا ويطلع على أسلوب حياتنا . وكان من هؤلاء أخ عربى عاش فى مصر لاجئا بضع سنين ، ثم تحول الى بلد عربى آخر ومات فيه غريبا ، يرحمه الله ، مثل هذا الرجل لا يعرف المداراة ، وربما كانت فيه غلظة لا تعجبنا . المهم انه قال لى مرة : أنتم أيها المصريون مولعون بالمبالغة. تسمون نهر النيل بحرا ، وتلال المقطم جبلا . قلت : الامور نسبية ، ونحن نعتز بما عندنا ، ولكننا نميز ، بدليل أن قريتنا ــ مثلا ــ تقع بين الرياح المنوفى وترعة من ترعه ، لا يتجاوز عرضها ستة أمتار ، فنحن نسمى الاول البحر الكبير ، ونسمى الثانية البحر الصغير .

على أن صاحبى لم يعد الحقيقة ، فنحن نلعب بالكلمات لعب السحرة ــ السنا سلالة ــ سحرة فرعون ؟ نعظم بالكلمات ما أردنا تعظيمه ونحقر ما أردنا تحقيره . نقتل بالكلمات ونحيى بالكلمات . قد يكون لاحدنا خمسة افدنة ولكنه يسميها عزبة ، وقد يفتح آخر متجرا لا تتجاوز مساحته عشرين مترا مربعا ويابى الا أن يكتب على لافتته « سوبرماركت » . ونحن نطرد المرض ونهزمه حين نرفض أن نسمى المريض مريضا ، فهو عندنا « عيان » ، أى مجهد ، وربما لاحظنا أن هذه الكلمة فقدت تاثيرها السحرى فقلنا عنه انه « تعبان »، وربما لم يكفنا هذا فقلنا انه « تعبان شوية » . والامثلة كثيرة على الجهتين ، وليقس مالم يقل .

ويبدو أن كلمة « الانفتاح » لم تكن في ظهورها الباهر، وصعودها الظافر ، علما خالصا ، ولكنها كانت علمـا مشوبا بشيء من السحر . فقد هبطت علينا كما يهبط الغيث على قوم عطاش ، طال شوقهم الى الـكومبيوت والسفن أب ، من كان ذا طول منهم فلابد أن يدخن السجائر الامريكية ، وان طال أكثر فالسيجار ، ومـن كانت ذات طول فلا غنى لها عن عطور باريس ، وذهب ايطاليا . وغنيهم وفقيرهم يبيت يحلم بالاستيريو والفيديو وفي أيديهم قروش مبللة بعرق الابناء والبنات في أرض الغربة ، والتاجر الجشع بمرصد ، يبحث عن السلعة الرخيصة أو البائرة أو التالفة لدى الاجانب ، فيتزاحم عليها المواطنون ، الهب شهوتهم الحرمان ، والاعلان ، وغيرة فلان من فلان ، وفلانة من فلانة ، والبنوك تقرض من مدخرات البسطاء ، فالربح في التجارة مضمون ، والتاجر يجني الملايين بعد الملايين ، وكان قبل بضع سنين يعد في المساكين .

سحر ! فهل أراده من أطلقوا تلك الكلمة أول مرة ، ام كانوا كمن فتح قمقما لايدري مافيه ، فانطلق المارد الحبيس من عهد سليمان ، فاته أن ينتقم ممن حبسوه ، فأخذ ينكل بمن أطلقوه ؟ مهما يكن من أمر فان مسئولية هؤلاء جميعا لا تعدل مسئولية الشعب الذي أساء التصرف في مدخراته ، بعد ان اهمل تنمية موارده ، فسعى ــ قاصدا أو غير قاصد ــ الى خراب وطنه .

أما الانفتاح الذي هو علم وليس بسحر فتقبل محمليه ، بطيئة نتائجه . الانفتاح وسيلة للتقدم ، اى للوصول الى مستوى حضاري أرقى . وللحضارة معنى

واحد وان كانت لها مظاهر كثيرة . أما المظاهر فمنها مايتعلق بالاكل والشرب والتسلية ، وهذه أتقناها وبرعنا فيها والحمد لله . واما المعنى فان يعمل الانسان عقله ويديه ليجعل مسكنه الدائم ـ الذى هو وطنه ـ مكانا اكثر راحة وأمنا له ولابنائه من بعده . ولا يضمن الديمومة الا نظم مستقرة ، ومؤسسات معنوية ومادية معمرة . واذا سألنا أنفسنا عما حققناه من معنى الحضارة وجدناه تافها لا يستحق الذكر . واذا سألنا أنفسنا هل ساعدنا الانفتاح على ترقية حضارتنا قلنا أما المظاهر فنعم ، واما معنى الحضارة وحقيقتها فلا ، ولعله زاد نظمنا اضطرابا ، ومؤسساتنا ارتباكا .

فهل نقول اذن أن الانفتاح شر كله ؟ هذا هو الخطأ بعينه . فالمعنى العلمى للانفتاح هو ألا ينغلق المجتمع على نفسه ، وأن يتبادل المنافع مع غيره ، وأن يتوسع فى ذلك الى أقصى مدى تحتمله قدراته . وهذا شرط من شروط صحة المجتمع وحيويته . ولعل الانفتاح لم يكن محتاجا الى أن يرفع شعارا ليعترف الكافة بأهميته . ولكن الانفتاح كالحرية ، لا يمكن أن يكون مطلقا . بل ان الانفتاح هو نوع من الحرية ، والواقع أن ما سميناه ألانفتاح يكاد يطابق ماسمى فى القرن التاسع عشر حرية التجارة . ولكن حرية التجارة ظلت مشروطة دائما بالمصالح الاقتصادية لكل بلد . ولاتزال حرية التجارة هى المبدأ المعترف به ، نظريا ، بين دول العالم الحر ، ولكن النظرية لا تطبق تطبيقا كاملا فى أى حالة من الحالات . وقد سمعنا وقرأنا عن مشكلات «انفتاحية» خطيرة بين دول السوق الاوربية المشتركة حول المنتجات

الزراعية ، وبين امريكا ودول السوق الاوربية مجتمعة حول صناعة الصلب ، وبين اليابان من ناحية وامريكا ودول السوق من ناحية اخرى حول حالة الميزان التجارى بينهما ».

انتا نعيش في مجتمع دولى بكل مافى هذه العبارة من معنى . فالانفتاح واقع لابد منه ، وليس مجرد دعوة او شعار ولا حتى سياسة . انما تكون الدعوة والشعار والسياسة فى مضمون الانفتاح . علينا أن نجرد هذه الكلمة من سحرها ، الطيب او الشرير ، فهذا السحر لا وجود له فى الحقيقة . الانفتاح ، فى مجال التجارة ، مشروط بمصلحتنا الاقتصادية ، وهى تقتضى ــ ولا شك ــ أن نكون منتجين قبل أن نكون مستهلكين ، والانفتاح فى مجاله الاوسع ــ مجال الحضارة ــ مشروط بقدرتنا على التعلم الذكى ، لنضيف ماعند الآخرين الى ماعندنا ، ولا نكتفى بأن نخلط هذا بذاك ، بل نصهرهما فى حضارة جديدة تضمن السعادة والامن لنا ولابنائنا . حضارة نستطيع ــ بعد ــ أن نقدمها للعالم ونقول : هذه حضارتنا ، ابداعنا ، ففى أعماقها تكمن روح ثقافتنا العريقة المعاصرة .

الأمن

كلمة « الامن » من اشد الكلمات التباسا في هـذا العصر . فهناك أناس كثيرون ـ بل شعوب بأسرها ـ لا يخيفهم شيء كما يخيفهم ذكر الامن . ومن المنطقي ان تكون اخافة المجرم او المعتدي لازمة لتامين الصالح والمستقيم ، ولكن من المنطقي أيضا الا تكون كثرة الناس مجرمين أو معتدين . غير أنه من سمات العصر ان الشك المنظم أصبح قاعدة في المعاملات ، بحيث أضيفت الى القاعدة المشهورة التي ضمنت حرية الفرد في ظل القانون : « المتهم بريء الى أن تثبت ادانته » قاعدة جديدة غير مكتوبة ، تقول : « كل انسان متهم الى ان تثبت براءته » . وربما اصبحت الحياة كلها لبعض الناس « محاكمة » طويلة ، يحاول فيها المتهم عبثا ، كبطل كافكا ، أن يثبت براءته من تهمة لا يعرفها .

كلمة « الامن » ، اذن ، تعبر عن حلم للانسان المعاصر اكثر مما تعبر عن واقع . على أن السخرية المرة في هذه الكلمة حين يكون الامن المقصود شيئا آخر غير أمن الفرد . فقد أصبح جهاز الدولة في العصر الحديث واسع القدرة ، كثير الوظائف ، ودخلت فيه اعداد كبيرة من العاملين ، واحاطت به اعداد كبيرة اخرى من المنتفعين ؛ فمن لم يكن من هؤلاء أو هؤلاء ، أو كان منهم ساخطا

على ضآلة نصيبه ، او حقارة شانه ، فهو خصم محتمل، فاذا أضيفت الى ذلك الحروب الساخنة والباردة التى لم يخل منها ركن من أركان العالم ، والاصابع الاجنبية التى تندس لتزيد هذه الحروب اشتعالا ، ظهر أن أمن الافراد — وهو الحجة الاولى لشرعية الدولة — أصبح ثانويا بجانب أمن الدولة نفسها . وبما ان « كل انسان متهم الى أن تثبت براءته » فان أمن الدولة يعنى ، فى كثير من الاحيان ، فقدان الامن بالنسبة للفرد .

هذه حال عافانا الله منها . ومع ذلك فقد قيل لنا ان ثمة أمنا من نوع آخر ، يجب توفيره للدولة وللافراد على السواء ، وهو « الامن الغذائى » . ولاشك أن كون الشعب قادرا على اطعام نفسه يعنى أنه شعب منتج ، لا يحتاج الى الغير للمحافظة على حياته . فهى اذن دعوة تنطوى على العزة الوطنية . ولعل فيها — كذلك — شعورا بالمسئولية من قبل الشعب والدولة نحو اخوتنا فى الانسانية ، فخبراء الزراعة يحذروننا من ازمة غذائية تلوح فى مستقبل غير بعيد ، ومع ذلك فان اختيار هذه العبارة بالذات « الامن الغذائى » ، يشير الى معنى ثالث صاحب كلمة « الامن » منذ وجدت ، وهو الارتياب فى عدوان محتمل . وقد اشار بعض الكتاب السياسيين الى هذا المعنى عندما قالوا ان القمح يمكن أن يصبح اداة للضغط السياسى ، شانه شأن النفط فى وقت مضى . « الامن الغذائى » ، اذن ، مفهوم لاينتمى الى زيادة الانتاج فقط ، بل ينتمى أيضا — وربما اكثر — الى مفاهيم اخرى مثل « الحرب الاقتصادية » ، و « الاكتفاء

الذاتى » . وهذا المفهوم الثانى تبنته بعض الدول عندما كانت تستعد لحرب فعلية طويلة الامد ، وقد ثبت أن كلا المفهومين لا يصلح لهذا العصر . فالحرب الاقتصادية ثبت فشلها اكثر من مرة ، بل انها عادت بالضرر على بائع السلعة اكثر مما عادت به على شاربها ، ومن ثم راينا شيئا غريبا : راينا الولايات المتحدة الامريكية ـ مثلا ـ تلطف من سياستها ، هونا ما ، نحو الروس لكى تتمكن من الاستمرار فى بيع القمح لهم . اما «الاكتفاء الذاتى » فلم تبق فى العالم دولة تحرص عليه ، فتبادل السلع قائم فى أوقات السلم وأوقات الحرب ، والدولة التى تحتاج الى سلعة ما تجد فى السوق العالمية اكثر من بائع واحد ، ومن ثم تتحول الحرب الاقتصادية الى حرب بين البائعين للظفر بمشتر مهم ، حتى لو كان هذا المشترى غير قادر على الدفع الا بالاقتراض من البائع نفسه .

ان انتاج السلع ـ سواء أكانت غذائية أم غيرها ـ لم يعد خاضعا الا لمعيار واحد وهو المعيار الاقتصادى . فلا معنى لاقحام « الامن » فى هذا المجال ، الا اذا كان لكلمة « الامن » سحر خاص ، يعز علينا أن نتخلى عنه .

ولكن الامر الاشد اثارة للدهشة هو أن بعض الناس اعجبتهم عبارة « الامن الغذائى » فصاغوا على مثالها عبارة جديدة على أهل الفكر وهى « الامن الثقافى » . ثم راحوا يبحثون عن معنى مناسب لهذه العبارة الزائفة وان كان من المؤكد ان يشمل هذا المعنى شيئا مماثلا « للأمن الغذائى » : اى ان ينتج الوطن العربى من الزاد الثقافى ما يغنى المواطن العربى ويشبعه ، فلا يعود

بحاجة الى الاستعانة بالمنتجات الاجنبية ـ وهى غريبة طبعا . هذه العبارة تبدو سخرية من جهتيها : فالذى يراد له الامن ليس هو المواطن العربى قطعا ، بل شيء آخر لا ندريه . والامن يمكن أن يطلب فى امور كثيرة ـ ايا كان المتمتع به ـ ولكنه لا يطلب فى الثقافة التى لا تنمو وتزكو الا بقدر مايفتح لها من الابواب لتتعامل بحرية مع الثقافات الاخرى . « الامن الثقافى » هو اذن دعوة للانغلاق ، ومن ثم فهو مفهوم معاد لفكرة الثقافة نفسها . وقد يقال ان « الامن الثقافى » يتضمن ان يجد القارىء العربى دوائر المعارف العامة والمتخصصة التى تغنيه عن مراجعة دوائر المعارف فى اللغات الاجنبية وان يجد تراث الفكر العالمى والادب العالمى فلا يحتاج الى بذل الجهد لقراءتها فى لغاتها الاصلية ، وان يجد تراثه كله محققا ، وما كتب حول هذا التراث بايدى المستشرقين مترجما ومراجعا ـ وهذه كلها اعمال عظيمة لا يمارى فى فائدتها أحد . ولكن كل مهتم بأمور الثقافة يسأل : وما منع أن تتم هذه الاعمال حتى اليوم ، وكلها قائمة من قديم ، وبعضها الفت له اللجان فى قطر او أكثر من اقطار العالم العربى ؟ هل كان يعوزها اسم سحرى مثل « الامن الثقافى » لكى تجمع الكتب والمخطوطات ، وتعد المشروعات ، وتوزع الموضوعات ، وتشرع الاقلام ، ثم تخرج المجلدات من المطابع الى رفوف المكتبات فى كل مدينة عربية بين المحيط والخليج ، ليقرأها الطالب الفقير والفلاح الامى ؟

ان هذه الاعمال العظيمة هى البنية الاساسية للثقافة

العربية الجديدة المرجوة . والبنية الثقافية لا تتم بكلمة او شعار ، بل تتم بحشد القوى والموارد فى عمل دءوب مستمر . وقد يكون الشعار مفيدا اذا دل على طبيعة العمل . ولكن هذا الشعار يدل على حالة نفسية عند بعض الناس لا تتفق والعمل الجاد المنتج . لقد رأينا بعض الناس يتحدثون عن « الاصالة » وفى وهمهم انهم يستطيعون أن يضعوا حدودا معلومة للجديد ، مع بقاء القديم على قدمه . فهم يخشون هذا الجديد الاجنبى كما أنهم لا يثقون بقديمهم ، ويبدو أن الذين يتحدثون عن الامن الثقافى قد توهموا اننا نستطيع ان نقلل خطر الجديد اذا أدخلناه جمركا عربيا . ان الخائفين وحدهم هم الذين يفكرون فى الامن . والثقافة لا تصنع فى ظل الخوف . الثقافة أبداع متجدد ، والانسان المبدع هو الانسان الحر . وما ابتلى الانسان بقيد على حريته أشد استبدادا من قيد الخوف . ان الثقافة العربية ـ حقا ـ تقف الان مدافعة عن وجودها نفسه . ولكن الخطط التى تقوم على تنازلات مستمرة ، أو تسليم جزئى ، لاتزيد على أن تؤخر موتها . ولم يعد هناك وسط . فاما وثبة جريئة تضعها على طريق جديد ، واما سقوط نهائى يستوى فيه ان يكون سريعا ساحقا أو بطيئا مؤلما .

هجرة العقول

اذكر انى كنت فى انجلترا فى خريف سنة ١٩٦٧ ، تلك السنة التى سيظل المصريون يذكرونها طويلا كما ذكر الفرنسيون سنة ١٨٧٠ . ووجدت الصحف الانجليزية مشغولة بموضوع هجرة العقول ، وهم يطلقون عليه اسما قاسيا فيقولون « استنزاف المخ » كما يقال « غسيل المخ » . وكانت قد الفت لبحثه لجنة قومية ، ولكن الصحف كعادتها تسبق تقارير اللجان . وكان من التعليقات التى استرعت نظرى قول احد الكتاب انه لا يمكن عمل شيء لوقف هذه الظاهرة ، فقد اصبحت سوق العمل - ولا سيما بالنسبة للتخصصات العالية - سوقا عالمية ، فلا يمكن منع الخبراء والعلماء من مغادرة أوطانهم للعمل في اقطار أخرى الا بعدوان شديد على الحرية الشخصية « وانت تعرف الي اى مدي يذهب الانجليز فى تقديس الحرية الشخصية ». ولعل الكاتب لو اكتفى بهذه الملاحظة لما بقى منها شيء فى ذاكرتى ، ولكنه أردفها بملاحظة اخرى نغصت على عيشى او زادته تنغيصا فى تلك الايام الكالحة . قال : لا يحق لنا نحن الانجليز أن نشكو لان عددا كبيرا من أطبائنا وعلمائنا البارزين يهاجرون الى كندا والولايات المتحدة ، فنحن نذهب بدورنا الى سوق العمالة الدولية

فنستقدم الأطباء والعلماء من الهند والباكستان وسائر الدول النامية . فهذه بتلك . قلت لنفسي : اذن فالذي يستنزف آخر الامر هو مخنا وحدنا . ولا يزال الضعف أبدا هو الذي يمد القوى بأسباب القوة ، ولا يزال الفقير هو الذي يدفع الحساب ، بينما الغنى يتصدر المائدة ويتلقى نفاق الحاضرين . ولكن لم يكن فى وسعى أن اتهم عقولنا المهاجرة بعقوق الاهل أو الكفر بنعمة الوطن . فقد كنت أعرف ــ ضمن دائرة اتصالاتى الضيقة ــ حالة أو حالتين لا تسمحان لى باصدار مثل هذا الحكم. كنت أعرف أستاذاً فى الاحصاء ، عرض عليه منصب فى هيئة التدريس بجامعة لندن ، ولكنه اعتذر وعاد الى جامعته فى مصر ، فلم يلبث الا قليلا حتى اعتقل ، ثم أخرج من المعتقل واسند اليه عمل لاعلاقة له بالاحصاء، واظنه الآن قد اجتاز تلك المحن سالما ، ولكننى أحسبه قد توقف عن النمو كعالم فى الاحصاء . وكان لى صديق تتلمذ على شيخ المستشرقين فى ذلك الوقت ، الاستاذ جب ، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد ، وعاد الى مصر فلم يطمئن به المقام وأرضوه بأن عينوه ملحقا ثقافيا بسفارة ما ، ولكنه هو لم يرض، لانه اكتشف ان عمله هو استقبال كبار الزائرين من مصر والعمل على راحتهم ، ثم شحن مشترواتهم بعد أن يغادروا . وكان ــ فى تلك الاشهر من عام العقاب الالهى ــ مفزعى فى الغربة ، وشريكى فى الالم ، فانه لم يصبر على ذلك الهوان ، بل استقال وساح فى بلاد الارض باحثا عن عمل مناسب ، حتى انضم الى هيئة التدريس فى معهد الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن .

لم يكن فى وسعى أن أدين أحدا من هؤلاء المهاجرين فلو جاز لى أن أقيس مالا أعلمه على ما أعلمه ، لقلت ان معظمهم تركوا وطنهم مرغمين . ولو قدرت الاسوأ ، وهو انهم آثروا خفض العيش فى الغربة ، على ضنكه فى الوطن ، لما استطعت — انسانيا — ان أطالب بحرمانهم من حق يتمتع به العامل العادى ، وكأننا يجب أن نعاقبهم على امتيازهم ، بدلا من أن نكافئهم عليه .

وكانت العقول المهاجرة تثبت جدارتها حيث حلت . ومعلوم أن العامل الاجنبى لايستبقى — وخصوصا فى البلاد الغربية — الا اذا كان مشهودا له بالكفاءة . لذلك لم يكن الى لحرمان بلادهم من جهودهم — وهى أحوج اليها — أشد من خجلى وسخطى حين سمعت مسئولا مصريا يتكلم عن هذا الموضوع فى حفل حاشد فى احدى العواصم العربية ، فيزعم أن العقول المهاجرة — وسماهم ساخرا الطيور المهاجرة — لا يستحقون العناء فى محاولة جذبهم الى الوطن ، لانهم لم يصلوا الى ما وصلوا اليه عن جدارة ، وانما توسلوا بالتقرب الى الاجانب ، والزواج من أجنبيات ! ولكن هذا الحكم الظالم نبهنى الى حقيقة مهمة : وهى أن الغيرة المهنية تلعب دورها حين يلتقى الخبراء المصريون الذين أقاموا فى مصر ، بزملائهم الذين هاجروا . فهذه الحقيقة ، بعد حقيقة الهجرة نفسها ، هى العامل الاكبر فى حرمان الوطن من جهود هؤلاء المهاجرين .

ان الشعور بالانتماء شعور طبيعى . ولكننا يجب الا نخدع أنفسنا باعتقاد ان الفرد الواحد له انتماء واحد . فالواقع ان لكل فرد — خبيرا أو غير خبير — انتماءات

متعددة . فهو ينتمي الى البلد الذى نشـــأ فيه والى النادي الذى يتردد عليه والى المعهد الذى تخرج فيه ، كما ينتمى الى أسرته والى جماعة أصحابه . ولعل شعور النوابغ بالانتماء الى فنهم أو علمهم ان يكون اقــوى من شعورهم بالانتماء الى الوطن نفسـه . فوطنه الصـغير الكبير هو المعمل او المكتبة ، أما وطنه الاوســـط او الاجتماعي فبيئة يطمئن فيها ، حيث لا تزعجه المطالب ولا الاحقاد ولا المؤامرات الخسيسة . وصحيح أن العالم أو الفنان لايتجرد من علاقاته الانسانية العادية لـكونه عالما أو فنانا ، وربما كان شديد الحب عميق الولاء للناس الذين نشأ بين ظهرانيهم ، ولكنه يحس أنهـــم أحب مايكونون أليه حين يبعد عنهم . وينبغي أن نعترف انا ، كشعب ، نقسو على النوابغ منا قسوة شديدة . فنحن نتجاهلهم في أول ظهورهم ، فاذا اصروا على المضى في الطريق الذى يسرته له مواهبهم حاربناهم ووضـــعنا ما نستطيع وضعه من العوائق في سبيلهم ، حتى اذا أصبحت منجزاتهم بالمحل الذى لا يستطاع انكاره صفقنا لهم ، وتمثلنا بأقوالهم ، وتجاهلنا كل من يجيء بعدهم .
وقد يتساءل المرء : أهذه صفة فينـــا كشعب حنكته التجارب ، فهو لا يقبل الجديد حتى يختبره مرة بعد مرة ، حتى اذا قبله تبناه وأصبح جزءا من كيانه ، أم هي طبيعة بشرية ، تبرز بوجه خاص في المجتمعـات النامية ، لان التحولات السريعة التى تمر بها ــ مختارة أو غير مختارة ــ تبعثها الى التشبث بالقديم ، ورفض كل جديد ؟

قديكون موقفنا من النوابغ أو الممتازين عامة عاملا

غير محسوس فى دفعهم ألى الهجرة . ولكن كونه غير
محسوس لا يقلل من تأثيره . وقد تكون زيادة المغريات
المادية التى نستطيع تقديمها الى هؤلاء الممتازين محدودة
جداً ، ولكن تغيير المناخ الثقافى المحيط بنا أمر يمكن
تحقيقه اذا فهم الجميع أن هذا التغيير قضية حياة او
موت . وقد أصبحت كذلك . ومن الشعور بضرورة
التغيير نستمد انتماءنا الحقيقي ، اذ لا أمل فى أن يبقى
انتماؤنا محصوراً فى مجموعة من الافكار والسلوكيات
نحن أول من يعلم أنها عتيقة بالية . الانتماء ، فى عصر
كعصرنا وبلاد كبلادنا ، هو أولا وقبل كل شىء الانتماء
الى جهد مشترك لتغيير الواقع . وعندما نشعر بهذا
الانتماء فلن يكون لهجرة بعض العقول ذلك الاثر البليغ
الذى نعانيه او نخشاه . سنكون قادرين على تعويض
مايستنزف بعطاء بلادنا السخى . وسيظل المهاجر لنا
رسول صدق لدى الآخرين . وستظل الجسور ممتدة
بين الظاعن والمقيم .

التسيب

« التسيب » ـ ولنكن صرحاء ـ هو درجة ما من الجريمة . هذا على الاقل هو الجزء الاصلى من معناه ؛ وان كنا نميل الى تناسى هذا الجزء . وقد يبلغ « التسيب » الى درجة تقرب من الخيانة العظمى حين يؤدى الى تسرب سر من اسرار الدولة بسبب الاهمال فى اداء واجب بسيط ، أو ضياع الملايين بسبب الكسل فى مراعاة التحفظ المطلوب ، أو هلاك عشرات الارواح نتيجة للتهاون فى اتخاذ احتياطات الامان اللازمة فى بعض الاعمال . هذه الاخطاء التى يسميها القانون « الاهمال الجسيم » كثيرا ماتترتب عليها فواجع قومية تلقى ظلها الاسود على حياة الكثيرين ، وتملأ نفوس الجميع ـ عدا القلة التى لم يعد يؤثر فيها شىء ـ باليأس والتشاؤم ، وتثير سؤالا ملحا عن نوع العقاب ومقداره وهل هو حقا يكافىء تلك الذنوب الكبار ؟

والعجيب فى أمر « التسيب » هو أن أشده أثرا وأفدحه ضررا هو مايقع دون قصد الى الاضرار بأحد ، أو رغبة فى تحقيق منفعة للنفس على حساب الغير . ولاشك أن هذا هو سر الاحكام القضائية التى يراها بعض الناس أخف مما يجب . ولكن بجانب هذه الجرائم الكبرى ـ بحسب تأثيرها على الاقل ـ أنواعا لايكاد يحيط بها الحصر من الجرائم المتفاوتة الحجم : ابتداء من اهمال

فى علاج مريض يفضى الى وفاة المريض ، الى القاء النفايات وحتى الزمم فى النيل ، الى ترك مكان العمل بدون عذر مقبول ، أو ترتيب يكفل قضاء مصالح الناس . ولكن أشيع أنواع التسيب ـ وأشنعها أيضا ـ هو السكوت على الاخطاء التى يرتكبها الاخرون عن عمد أو عن اهمال . وهذا أيضا درجات : من سكوت على اغتصاب أملاك الدولة الى سكوت على محاباة أو ظلم . ويوشك من يسكت مرة بعد مرة أن يصبح شريكا كاملا فى الخطأ أو الجريمة ، ولا سيما اذا كان من ورائها نفع مادى ، والا فكيف يعتذر لنفسه عن رضاه بالخطأ ؟

الشىء المفزع حقيقة هو اننا جميعا مشتركون فى درجة أو أكثر من هذا « التسيب » ! هل تكون صرحاء أكثر ـ أو لعلنا نظلم انفسنا ؟ ـ اذا قلنا أن وصمة الجريمة تطولنا جميعا ، حتى أشرف الشرفاء منا ؟ أم لعلنا نبالغ حين نقول أن « التسيب » ينطوى دائما على جريمة ما ؟ تساؤل أطرحه أمام ضمير كل مواطن ، فنحن نعلم ان الوفا من الاخطاء ترتكب كل يوم ، أخطاء يمكن ان تحل مشكلات مؤقتة أو خاصة « ككل خطأ ! » ولكنها تزيد الحياة صعوبة أمام الآخرين ، ثم أمامنا نحن أنفسنا بعد حين . ونحن نشارك فيها « مضطرين على مايبدو » أو نراها ولا نحرك ساكنا لمنعها « عاجزين على مايبدو » وكأن بيننا اتفاقا ضمنيا على خراب هذا البلد . هل نحن شريرون الى هذا الحد ؟

لا أعتقد ذلك . انما الذى أراه اننا مجاملون ، طيبون متسامحون ، مسالمون .. أكثر مما ينبغى .

ومجموع هذه الفضائل هو ما اصطلحنا على تسميته

بالتسيب ، مع علمنا ان التسيب اما ان يكون غطاء لجريمة أو سببا لجريمة .

وهذا هو الجزء الثاني من معنى التسيب : اللامبالاه . واذا استحالت الطيبة والتسامح والمجاملة والمسالمة الى لا مبالاه غدت أشبه بانتحار جماعي هادىء .

فالتسيب قد ينطوي على جريمة ، ولكن من الصعب ، بل من المستحيل في معظم الاحيان أن يعامل معاملة الجريمة . تخيل عدد المتهمين ، والقضايا ، والملفات ، والمحاكم ! تخيل كيف يمكن أن توصف التهم وتطبق البنود القانونية على الواقع ! واهم من هذا : كيف يمكن أن يطمئن قلب العدالة الى عقاب التسيب !

ان الجريمة التي يتعامل معها القضاء شرطها المسئولية ولذلك لا يعد المجنون مجرما ، اذا ارتكب فعلا هو في ذاته جريمة ، وانما يعامل معاملة مجنون ويودع المستشفى . فلا يكفي أن يصنف الفعل في حد ذاته جريمة ، ولا يكون مستحقا للعقاب الا اذا صدر عن عاقل مميز مختار لافعاله .

ولا يمكن أن يدعى أحد أن هؤلاء المتسيبين جميعا ناقصو الاهلية ، لا يعرفون نتائج أفعالهم ، أو لايقدرون على الامتناع عنها ، ولكننا قد لا نجاوز الحقيقة اذا قلنا انهم في كثير من الاحوال ، ان لم يكن في معظم الاحوال أسرى شعور مريض بأنهم لا يملكون تغيير الواقع المحيط بهم ، بل انهم ، في كثير من الاحيان ، لا « يفهمون » الواقع ! تشيكوف له قصة عن فلاح وقد مثل أمام

المحقق متهما بانتزاع « صامولة » من احدى «فلنكات» « عوارض » السكة الحديدية . التهمة الموجهة خطيرة وهى الاستيلاء بدون وجه حق على بعض أملاك الدولة ، وهناك تهمة أخطر وهى التخريب الذى يمكن أن يودى بأرواح آلاف الضحايا . أما الفلاح فلا يعرف الا انه « وجد » هذه الصامولة ورآها صالحة جدا لان يجعلها ثقلا فى صنارته ! القصة واقعية الى درجة انك تستطيع القول بأنها « ريبورتاج » حقيقى . وانا شخصيا سمعت رجلا طيبا يحكى عن احد أصحابه انه اشترى مسكنة صغيرة جعل يصنع بها عددا معينا من « أنصـــاف الفرنكات » كل يوم ، وينزل بها الى العاصـــمة « كان يقيم فى الريف » ، فيوزعها فى مسافة ساعة ويرجع . قال الراوى : « وفتح الله عليه فى هذه العملية وأصبحت اشيته عال العال ! »

اذا لم تصدق هذا المثل المتطرف فعد بنا الى مثـل الذى يدرك الواقع ولكنه لا يستطيع تغييره . واسأل نفسك : كم من الناس يضعون سياراتهم فى الامـكنة غير المسموح بها ، ويعطلون المرور ، لانهم لا يجدون مكانا « مشروعا » يضعونها فيه .

هذه امثلة صغيرة ، ولكنك « تعلم » ، ولا ريب ، انها يمكن أن تتكاثر عددا وخطرا بقوة متوالية هندسية . ولعلك توافقنى على أن « التسيب » ليس الا واحدا من أعراض مرض خطير يمكننا أن نسميه : نقص المعرفة ، مع انعدام حرية الاختيار .

المؤسسات

من طريف مايروى عن عهد الولاة الاتراك أن أحدهم رفعت اليه شكاوى كثيرة عن حوادث سطو على المنازل والحوانيت اثناء الليل . فأوحي اليه أحد أعوانه أن لا سبب لذلك الا الظلام الحالك الذى يسود الطرقات والحارات ، ولا علاج ــ من ثمة ــ الا بانارة المدينة كلها . وبعد مكاتبات بين الوالى والباب العالى صدر الفرمان السلطانى ووصلت ألصرة بنفقات المشروع . وهنا استكثر الوالى المبلغ الذى جادت به مكارم السلطان وقرر أن يحتجز نصفه لنفسه . ودفع بالنصف الباقى لنائبه وأمره أن يقوم بتنفيذ الامر الشاهنشاهى . ولم يكن النائب أقل خبرة بتنفيذ الاوامر السلطانية من أستاذه فاحتجز لنفسه نصف النصف ، ودفع بالربع المتبقى الى المحتسب ، ومن المحتسب الى قائد الشرطة ، ومن قائد الشرطة الى رؤساء الاخطاط ، وعندما وزع كل رئيس خط على مشايخ الحارات التابعين له مافضل عن حاجته وحاجة رؤسائه كان ماحصل فى يد كل شيخ حارة شيئا لا يكاد يفي بثمن القهوة والشاى . وهكذا وضع فى يد المنادى قرشا وأمره أن يعلن أهل الحارة بأن على كل منهم ان يعلق فانوسا على باب داره ، ومن يخالف يستاهل مايجرى عليه .

هذه القصة الرمزية تصور احسن تصوير كيف كانت

تدار الشئون العامة فى وقت من الاوقات . كانت هناك حكومة « لاشك » ، وكانت لتلك الحكومة « مؤسسات » ادارة ، وعسكر ، وقضاء ، الخ « لاشك ايضا »، وكانت هذه المؤسسات على اختلافها تتبع نمطا واحدا فى التعامل او قل فلسفة واحدة فى تصريف شئون الدولة ، وهى فلسفة الثواب والعقاب متمثلين فى الرشوة والجلد ، وترمى الى هدف واحد وهو اقتسام ربع الضيعة التى تشمل البلاد كلها ، مع اعتصار جهود الكادحين الى آخر قطرة من عرقهم وحتى دمائهم .

لم يكن لمثل تلك الحكومة شغل بما يصيب البلد من جوائح : لا اختلال الامن ، لا شح الاقوات ، لا فتك الوباء ، لا صولة الاعداء ـ كل ذلك من اختصاص المنادى وعلى الشعب أن يحتال لدفعه بما يملك من وسائل : ابتداء من « ياخفى الالطاف نجنا مما نخاف » الى ترتيب المجاهدين الذين ازعجوا الحملة الفرنسية ـ مثلا ـ بثورتين عنيفتين خلال ثلاث سنوات فقط ، والجئوها الى الرحيل المبكر وهى التى قدمت لتبقى ، كما تدل المجلدات الضخمة التى اخرجوها فى « وصف مصر ».

ومثل هذا العمل الجبار لم يكن ليتم بدون تنظيم ، لقد كان وراءه « مؤسسات » من نوع آخر : مؤسسات شعبية هذه المرة ، على راسها النقابات الحرفية التى كانت تمثل وحدات اقتصادية وسكنية فى الوقت نفسه ، والى جانبها المستنيرون من رجال الدين .

وهنا سأطرح مسألة ـ ولعل الذين يضيقون باى حديث عن التاريخ ـ حتى تاريخنا القريب ـ ويجعلون شعارهم دائما اننا « أبناء اليوم » ، يتنفسون الصعداء حين نقترب من الحاضر ونسأل مع الدكتور جمال حمدان

كيف حدث أن طال عمر الاستعمار البريطاني في مصر اكثر من سبعين سنة ، بينما لم يعمر الاســتعمار الفرنسي الا ثلاث سنين أو مايقرب منها ؟ والجواب الذي نقترحه هو أن الاستعمار البريطاني لم يجد أمامه تلك المؤسسات الشعبية المتماسكة التي وجدها الاستعمار الفرنسي « على الرغم من ان ادواتها التنظيمية والتنفيذية كانت بدائية جدا بالقياس اليه » . ان « النجاح » الاكبر الذي حققه الاستعمار الغربي في مصر وفي سائر البلدان العربية هو أنه اوصل المؤسسات الشعبية الى درجة من التحلل ثم الذوبان النهائي بحيث أصبحنا الان عاجزين عن مجابهته بمقاومة على درجة من القوة تكفي لهزيمته .

اذا تحدثنا عن « المؤسسات » فيجب الا نتصور ولو للحظة واحدة انها شيء يخطط على الورق ويضم الى اجهزة الدولة او يوضع فوقها « كما ترى المدينة العربية طراز الثمانينيات : شوارع فسيحة مستقيمة متقاطعة تصطف على جوانبها العمارات الشاهقة ، فوق «أرضية» من الحارات القديمة ذات البيوت الصغيرة المتلاصقة » « المؤسسة » كلمة من الكلمات التي نالت رواجا خاصا في استعمالنا العربي الحديث ، ابتداء من دكان يسميه صاحبه « مؤسسة » الى « مؤسسات الدولة » التي نطلقها على الاجهزة الكبرى من تشريعية وتنفيذية ، وقد اضفنا اليها في العهد الاشتراكي « المؤســـسات » الاقتصادية التي تكون القطاع العام . ولكن الاستعمال الذي جرينا عليه في هذه الكلمة قد يكون أحق بالاهتمام لانه ينبع من الواقع وان كان في الوقت نفسه يعبر عن امل . ان « المؤسسة » التي نقصدها تجمع بين معاني « الفئة » و « المنظمة » و « التقاليد الحية » . أي

انها مفهوم اجتماعي ، قبل أن تكون مصطلحا اداريا أو حكوميا . واذا كان الوضع الامثل هو التطـــابق بين المفهوم الاجتماعى والمصطلح الحكومى ، فان الاول هو الاصل والجوهر ، وهو الذى يجعل « المؤسسة » قوة فعالة فى حياة الامة وتقدمها . ولا نعرف « مؤسسة » ينطبق عليها هذا المفهوم بقدر ماينطبق على « المؤسسة التعليمية » فى عصرنا الحديث ، ابتداء من رفاعـــة الطهطاوى الى محمد عبده وتلاميذه . هذه المؤسســة التى كان وصولها الى تمام النضج ايذانا بانطلاق ثورة وطنية أصلاحية ناجحة .

الثورة

اثنان وثلاثون عاما مرت منذ ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ . على مدى هذه السنين ظهر اسم « الثورة » كـواقع معاش وتطور مدلوله فى أذهان المصريين . فى الوقت الحاضر يمكننا أن نلاحظ أن الاغلبية ينظرون اليه كاسم تاريخى . وهذا هو التفسير القريب للنشاط المتزايد بين المؤرخين للكلام عن « الثورة » . ولكننا نلاحظ أيضا أن هذا المفهوم يرتبط فى أذهان الجميع بوضع سياسى واجتماعى قائم ، فليس ثمة جدال فى أن « هـــذه » الاوضاع السياسية والاجتماعية هى وليدة « تلك » الثورة . ولا غرابة فى أن يجتمع المفهومان ، فمـــن البديهيات أن الحاضر ابن الماضى ، ولا سيما المـاضى القريب . ولكننا ــ فى هذه الحالة بالذات ــ نشـــهد مايشبه الصراع بين المفهومين . ولعلى لا أغلو اذا قلت ان هذا الصراع ربما كان مسئولا عن كثير من مشكلاتنا السياسية والاجتماعية ، وليس من السذاجة فى شىء أن نقرر أن توضيح مفهوم « الثورة » ــ ثورة ٢٣ يولية بالذات ــ ربما ساعد على حل كثير من هذه المشكلات .

« فالثورة » تعنى التغيير ، أى أعادة ترتيب الاوضاع و « النظام » يعنى أن يعرف كل فرد وكل مجموعة من الناس موضعه او موضعها داخل النظام ، وأن يقـوم بالدور الذى ينتظر منه أن يؤديه . ومن سنن التاريخ أن

كل ثورة تفضى الى « نظام » جديد ، اى الى أوضاع سياسية واجتماعية جديدة . وكثيرا مايكون الانتقال من « الثورة » ، اى من ازاحة الاوضاع القديمة ، الى « النظام » اى الى الاوضاع الجديدة ، اصعب من قيام الثورة نفسها . وكثيرا ماتحدث تحولات ، وكثيرا ماتحدث تراجعات . ومعلوم أن الثورة الفرنسية نفسها ـ وهى أم الثورات الحديثة باجماع المؤرخين ـ قد أدت اولا الى دكتاتورية نابليون بونابرت ، مع ما اقترنت به من احياء لفكرة « امبراطورية » اوربية ، تبسط هيمنتها على العالم ، ثم انتهت أخيرا الى عودة الملكية القديمة ، مع الارستقراطية التى تستند اليها ، فى محاولة للم شعثها والتحالف مع الطبقة الجديدة الصاعدة . ومعلوم كذلك أن النظام الجديد قد أحتاج الى سلسلة من الثورات الصغيرة المكملة حتى وصل الى نوع من الاستقرار .

اندفاع جامح ، تعبر عنه تغييرات توشك أن تكون يومية . ثم تحول تدريجى نحو الاستقرار على وضع جديد ، هذا هو قانون الثورات بوجه عام ، بل يمكن القول أنه قانون التغير فى الطبيعة والانسان على السواء ولكل أمة بعد ذلك تركيبتها النفسية الخاصة ، ولكل عصر ظروفه التاريخية المتحكمة ، واذا تأملت الاحداث الكبرى التى شهدناها منذ ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ ، وجدتها لا تخرج فى جملتها عن هذا القانون . أما تأثير التركيب النفسى الخاص للشعب المصرى ، والسمات المميزة ـ على مستوى الوطن والمنطقة والعالم ـ للحقبة التى نعيشها ، فهو مانحاول أن نتبينه الان ، لعله يفسر لنا حقيقة الصراع بين مفهوم « الثورة » كتغيير ،

ومفهوم « الثورة » كنظام ، في وعي الانسان المصرى ، ونتائج هذا الصراع في تعامله مع الاوضاع السياسية والاجتماعية القائمة ، وكيفية نهوضه بواجباته داخل هذه الاوضاع .

ان جيل الشباب ، بل جيل الكهول اليوم ، لا يعرف غالبا ان كلمة « ثورة » لم تستعمل للتعبير عما حدث يوم ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ وفى الايام القليلة التالية له الا بعد مرور عدة اشهر على هذه الاحداث . لقد استيقظ سكان القاهرة صباح ذلك اليوم فرأوا الدبابات في الشوارع ، ثم سمعوا بيانا في الاذاعة أشار الى الفترة العصيبة التي مرت بها البلاد ، وانتشار الفساد حتى وصل الى الجيش ، وان الجيش قد قام بحركة لتطهير صفوفه ، وهكذا استمر الحديث مدة عن « حركة الجيش » ، ثم سميت « الحركة المباركة » ، ولا سيما حين ظهر أن لها أهدافا سياسية واجتماعية تتجاوز مجرد تطهير الجيش ، تلك الاهداف التي أعلن قادة الثورة تمسكهم بها باعتبارها مبادىء لا تقبل المساومة ، ووجد فيها الشعب تعبيرا عن طموحاته الكبرى منذ قيام الحركة الوطنية ، وعلى رأسها تخليص مصر من قبضة الاستعمار والقضاء على سيطرة الاقطاع ورأس المال على جهاز الحكم ، والعمل على قيام نظام نيابي سليم . وشيئا فشيئا تبين أن « حركة الجيش » تريد ثورة حقيقية .

والواقع أن الانجازات التي حققها الحكام الجدد ــ وهم شباب لم تكن لهم سباق خبرة بالسياسة ــ كانت انجازات ثورية غيرت نمط الحياة في مصر ، وامتد أثرها الى المنطقة كلها ، بل اسهمت في تكوين الصورة الجديدة للعلاقات الدولية في عالمنا المعاصر . فانصار

الثورة وأعداؤها على السواء يعترفون إنها غيرت التركيب الطبقى والعلاقات الطبقية داخل المجتمع المصرى ، كما يعترفون أن تأميم قناة السويس كان النموذج الذى احتذته كثير من الدول الصغيرة عندما أممت صناعاتها البترولية ، وان أسلوب التحدى الذى اتبعته مصر فى علاقاتها بالدول الكبرى قد فرض نوعا من « الندية » — ظاهريا على الاقل — فى العلاقات بين الكبار والصغار صحيح ان انصار الثورة واعداءها يختلفون اختلافا واسعا فى تقدير قيمة هذه الانجازات ، ففريق يتطرف فيراها شرا محضا ، وفريق يراها خيرا محضا ، وفريق — وهو الاكثرية — يراها خيرا لم يخل من بعض الشرور ، أو شرا فى ثناياه بعض الخير . ولكن اختلاف التقدير لا ينفى جوهرية التغيير ، وهو مايجب اخذه فى الحسبان قبل اى شىء آخر ، اذ أن التغيير الجوهرى هو — غالبا — تغيير وجد ليبقى .

والفريقان — الاعداء مثل الاصدقاء — لا يمكن الا أن يسلموا بأن الطريقة التى تمت بها هذه التغييرات كانت لها مزايا مهمة . ان قيام الجيش بمهمة التخطيط والتنفيذ للأهداف الوطنية جعل ثورة ٢٣ يوليـة ثورة بيضاء حقا بمقياس الثورات . ولا غرابة فى ذلك ، فقوة الجيش كانت اضخم من ان تتصدى لها أية قوة داخلية، وان كانت هذه الحقيقة نفسها قد حددت طريق الثورة فى العمل لسنين طويلة بعد أن قبضت على السلطة ، وهو طريق فرض الاوامر . والتكتم الذى عمدت اليه الثورة فى تنفيذ مخططها — وهو مرتبط دون شك بالعقلية العسكرية التى هيمنت عليها — هيأ لها سبيل النجاح مرة بعد مرة فى عالم حافل بالتوترات الدولية،

والصراعات المذهبية ، وأن جعلها تبدو فى نظر الكثيرين في الداخل والخارج على انها ثورة تفتقر الى ايديولوجية واضحة ، ومن ثم فان التعامل معها ــ على مستوى الافراد أو على مستوى الدول ــ ينطوى دائما على مخاطرة ، على الداخل فيها أن يحسب حساب الخروج قبل حساب الدخول .

هذه هي خصوصية ثورة ٢٣ يولية . وقد ترتبت عليها نتائج مهمة اخذنا نعانى منها الان ، بعد أن قطعت شوطا طويلا فى تحولها الطبيعى الى نظام . ان الثورة ــ بمعنى القبض على جهاز الحكم ــ يمكن أن يقوم بها افراد قلائل . ولكنها حينئذ لن تكون ثورة حقيقية . فالثورة الحقيقية ــ كما سبق القول ــ هى تغيير شامل للنظام السياسى الاجتماعى : ازاحة لنظام قديم واحلال لنظام جديد . والازاحة ايضا يمكن أن تقوم بها قلة تملك القوة . ولكن اقامة النظام الجديد هى مهمة الشعب ككل . وقد وقر فى اذهان اغلبية الشعب أن الثورة التى اعفته من مهمة التخطيط والتنفيذ فى كل ماقامت به من انجازات ، سوف تعفيه أيضا من هذه المهمة فى اقامة صرح المجتمع الجديد .

هذه هى مشكلة المشاكل ، وحلها الوحيد هو اسناد المسئولية ، ومزيد من المسئولية ، للمؤسسات الشعبية اى اقرار الحقوق الديموقراطية ، ومزيد من الحقوق الديموقراطية ، لكافة افراد الشعب .

الأجيال

كلمة « الجيل » من الكلمات التى يستحيل تحديدها : مثلها مثل كلمة « الآن » التى ينتهى معناها بمجرد نطقها ، وكلمة « غدا » التى تسحب دائما نحو غموض المستقبل . وغفر الله لابن أبى ربيعة الذى يقول :

كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت : بعدغد!

وكيف نحدد من نقصد بالجيل الجديد والاطفال يولدون فى كل لحظة : هذا شأنهم الان ، وكذلك كان شأنهم دائما . فمتى ينتهى جيل ويبدأ جيل ؟ علينا اذن ان نتمركز فى نقطة معينة ليكون لمثل هذه الكلمات معنى له صلة ما بالواقع . ونقطة التمركز لا تختار اعتباطا — هذا بديهى — بل لانها تمثل نقطة تحول فى سير الزمن ، نقطة يعترف الجميع بأهميتها ، ومن هنا يمكن أن تكون فارقة بين جيلين .

نحن نرفض اذا ذلك التحديد البيولوجى للجيل بثلاثين سنة ، لانه يصدق فقط لو كانت فترة التوالد عند الانسان محدودة بموسم معين وسن معينة ، ولو كان الانسان يعيش كما تعيش القرود فى الغابة ، اى فى ظل ظروف ثابتة ، بحيث لا تخضع التغيرات التى تصيب الجماعة الا لدورة الحياة البيولوجية . اما والحال غير ذلك فليس من المستغرب أن يتسارع ايقاع الاجيال فنرى جيلا جديدا كل عشرين سنة أو حتى عشر سنين ،

بدلا من كل ثلاثين . ومن الجائز ايضا أن يختل الايقاع فيسرع مرة ويبطيء مرة . فالحوادث التاريخية الكبرى لا تتبع نظاما ثابتا كالانتقال من الطفولة الى الشباب الى الكهولة الى الشيخوخة . ولكننا نستطيع أن نقول ان هناك معيارا على درجة من الثبات لظهور جيل واختفاء جيل ، وهو أن الحادث التاريخى المهم والمؤثر يوافق - بالنسبة للجيل الطالع - سن المراهقة والشباب الباكر ، ليترك انطباعه القوى حين يكون الانسان فى مرحلة البحث عن القيم التى ستحكم شخصيته وسلوكه فى المستقبل ، ولن يظهر تأثير هذا الجيل فى الحياة العامة الا بعد عشرين سنة تقريبا ، حين يكون قد اكتسب من الخبرات العملية واحتل من المواقع مايمكنه من التأثير . وقد تستمر سيطرة هذا الجيل عشرين سنة أو أكثر أقل ، بحسب سرعة تكون الجيل التالى .

اعتقد أننا حين نأخذ هذه الامور كلها فى اعتبارنا فسوف يتضح لنا سبب مهم من اسباب القلق - بل الغليان احيانا - الذى يلاحظ فى كثير من أجزاء العالم العربى فى هذه الايام .

فالجيل الذى يوجه الحياة العامة فى بلادنا اليوم هو الجيل الذى تشكل وعيه الاجتماعى أثناء الحرب العالمية الثانية ، ورأى الاستعمار القديم يصفى بعضه بعضا ، بعد أن ظل جاثما بضع عشرات من السنين « جاوزت القرن فى حالة الجزائر » . ورأى تراكم المشكلات الاجتماعية الداخلية ، دون اهتمام حقيقى بحلها ، أو حتى فهمها . فخيل لهذا الجيل انه يستطيع ان يستدرك كل ما فات الاجيال السابقة ، وانه يستطيع أن يصنع لنفسه ، وللاجيال التالية ، حياة كريمة ومجدا وطنيا أو قوميا

اذا قام بضربات سريعة متلاحقة ، تجعل الاستعمار يهرب الى جحره ، وتعيد تشكيل الحياة داخل الوطن .

لا اظننا نظلم هذا الجيل اذا قلنا انه حقق هدفه المزدوج بسهولة لم يكن هو نفسه يستطيع أن يتخيلها . ان الذى يتصفح جهاد الشعوب العربية ضد الغزو الاستعمارى طوال القرن التاسع عشر وخلال العقدين الاولين من القرن العشرين ينتابه شعور مأسوى بقسوة الهزيمة بعد الكفاح الطويل العنيد . أما الذى حدث خلال بضعة عشر عاما أعقبت الحرب العالمية الثانية فكان سلسلة من الانتصارات الزهيدة الثمن « فيما عدا حرب الجزائر ، لاسباب خاصة بالاستعمار الفرنسى فى تلك البلاد » . وشهدت هذه الفترة نفسها توسعا لم يسبق له نظير فى التنظيمات الاجتماعية ، أخذ شكل « الاصلاح » مرة و « التحديث » مرة أخرى ، واقترن دائما بنشاط اعلامى ذى كم هائل . ويمكننا أن نسجل ، كمؤشر على هذا التغير الكبير فى النظرة الى المشكلات الاجتماعية ، الكثرة اللافتة للنظر فى عدد أقسام « الاجتماع » و « الاعلام » فى الجامعات العربية « هناك أيضا معاهد كاملة مخصصة لهذين الفرعين » .

فى حميا هذا النشاط وذاك الانتصار لم يكن لنكبة ١٩٤٨ تاثير يذكر الا على الفلسطينيين الذين خرجوا من ديارهم وهم لا يتخيلون أن غيابهم عنها يمكن أن يطول ، والفلسطينيين الذين بقوا فى فلسطين يعانون من عزلة مزدوجة : عزلة عن عالمهم العربى وعزلة عن المجتمع الفلسطينى الذى حولهم — واقعا لا مجازا — الى غرباء فى وطنهم . مرت « النكبة » كما مرت قنبلتا هيروشيما وناجازاكى من قبل ، حادث عابر ، أو وعكة طارئة ، تزول آثارها بعد حين . ولم يكن الحادثان منفصلين أحدهما

عن الآخر . ومن يدري ؟ لعل أحدا لايستطيع أن يخمن ، حتى الآن ، الى اى حد هما مرتبطان !

ولكننا نعرف - على الاقل - أن اسرائيل ، على صغر حجمها ، أصبحت تملك واحدا من أكبر جيوش العالم واحسنها تجهيزا ، واصبحت تمارس نشاطا سياسيا متزايدا داخل منطقتنا العربية . وانها ربما كانت الدولة الوحيدة في العالم التي تتصرف بثقة كاملة في اطار سياسة دولية قائمة على توازن الرعب النووى . هذه المتناقضات كلها تشير الى اننا نعيش بالفعل في عالم مختلف عن ذلك العالم الذى انتهى بنهاية الحرب العالمية الثانية ، وأكثر من ذلك : اننا نعيش فى بؤرة هذا العالم الجديد . حقا اننا لم نكن بعيدين عن هذه البؤرة قط ، ولكننا اصبحنا الآن ، ان صح هذا التعبير ، فى بؤرة البؤرة ، في مركز المركز . وهذا شيء لم نكن مستعدين له ، ولكننا فوجئنا به عام ١٩٦٧ ، عام « النكسة » .

ان جيلنا ، نحن الكبار ، هذا الجيل الذى لم يستوعب جيدا معنى « النكبة » ، قد تلقى « النكسة » مذهولا ، وهو ابن الانتصارات السهلة والغزوات الاعلامية ، تلقاها حين بدأت قواه تخور بعد عربدات الشباب وغروره .
ولكن نكسة ١٩٦٧ كانت الحدث التاريخى المهم الذى تبلورت حوله المواقف الاجتماعية لجيل جديد . ان الفرق بين هذا التاريخ والتاريخ السابق اثنان وعشرون عاما بالضبط . فرق لا يبعد كثيرا عن الفرق البيولوجى بين جيلين . واذا صحت حساباتنا فان هذا الجيل الجديد

سوف يتولى القيادة بعد عشر سنين تقريبا ، ان مهمته لثقيلة ، وانى لاراه يتململ فى كل مكان . ولكن اشد مايزعجنى انه لم يعد يثق بنا . ثقيل على النفس ان يعتذر الاباء الى إبنائهم ، وخصوصا حين يكون الاعتذار غير مقبول سواء اجاء من اولئك الذين تصدروا الصفوف ، أم من اولئك الذين آثروا ان يبقوا فى المؤخرة . ان خطأ التقصير ليس أقل من خطأ الفعل ، والساكت على الحق شيطان أخرس . خير ما يمكننا أن نفعله ، اذن ، ونحن فى هدوء الشيخوخة ، ان نراجع حساباتنا ، ان نبحث فى أوراقنا المهملة ، عسانا نفهم الحاضر فهما افضل ، ونقدم لهم ، من خلاله ، دليل المستقبل .

القسم الثانى :

الصراع اللغوى
نظرة إلى الحاضر والمستقبل

المأزق اللغوى

حدثنى صديق ذو منصب رفيع انه شهد اجتماعا لعدد من رجال السياسة فى بلد عربى عزيز علينا جميعا ، فأدهشه ، ولعلى اقول روعه ! انه وجد القوم يتحدثون بالفرنسية ! ولم يكن فى المجلس احد من أبناء الفرنجة ، ولا ممن لا يحسنون العربية ! لذلك لم تكن دهشة الصديق عظيمة جداً حين اتفق له فى مناسبة أخرى ان سمع سيدة أجنبية تدعى أن اللغة الاولى فى ذلك البلد هى الفرنسية .. ولما حاول أن يصحح لها خطأها بلطف لجت فى العناد . فلم يجد بدأ من أن يلتفت الى أحد أبناء ذلك البلد الشقيق وكان حاضرا المجلس الا أنه بقى معتصما بالصمت وقال له : قل لها يافلان !

لو كانت السيدة المذكورة من رجال السياسة او نسائها لتحاشت هذا الموضوع الشائك ، وتركت «العملية» تتم بدون تعليق يثير الحساسيات والحساسيات تثير العصبيات والعصبيات لاتعمى دائما كما زعموا لك ولكنها قد تكشف المستور .. وتوقع فى المحذور ، وتعطل سير الامور و « العملية » ـ وارجوك الا تفزع او تجزع ـ هى فرنسة البلاد العربية أو نجلزتها او امركتها .. وكل هذه الفعللات سائرة ـ منذ أكثر من قرن ـ على خير ما يسر العدو ويكمد الصديق .. تفعللت ـ اى تأوربت ـ الملابس وتأوربت البيوت وتأوربت العادات ، ولم تتأورب معها صناعة ولا زراعة الا بالقدر الضئيل الذى يبقينا دائما

عمالا للاجانب .. وهانحن اولاء تتامرك بهمة لا تعرف الكلل ، فهل تكون أسعد حظا او هل نتعلم من اخطائنا السابقة ؟

على ان حضارتنا لم تتهدم بعد ، لم تدكها آلة الصناعة الغربية التي لا عقل لها ولم تحولها الى انقاض ، فقد ظلت قائمة على عمودين راسخين : الدين واللغة . وكان هجوم الحضارة الغربية على هذين العمودين هجوما سافرا في أول الامر ، فلما تثلمت أسلحة الحضارة الغربية وارتدت عنهما مقهورة لجأت الى الحفر من حولهما ،طمعا في أن ينكشف الاساس ويسقط ـ لا قدر الله ـ العمودان العنيدان ..

في البداية كانوا يقولون ان الاسلام يعوق « التقدم » يعنون انه يعوق تسليمنا غير المشروط للحضارة الغربية « فالمعنى عندهم واحد » ـ بهذا صرح كرومر لورد وادى النيل ، وكانوا يقولون ان اللغة العربية تعوق انتشار التعليم ، وازدهار الادب ، ونهضة الثقافة ، ويحثون المثقفين العرب على طرح الفصحى واصطناع العامية ، كما فعلت أوربا بلغتها اللاتينية ، وبهذا صرح القاضي ويلكوكس ، أحد أعوان اللورد كرومر ، ولعلهم كانوا ـ في عنفوان سطوتهم ـ يحسبون الامر هينا ، فما هو الا ان يطلقوا مثل هذه الدعوات في مشرق العالم العربي ومغربه حتى يتلقفها أبناؤه المبهورون بعظمة الغرب فيتموا بأنفسهم التحول الكبير المنشود ، ويصبح العالم العربي صورة ممسوخة من أوروبا ..

ولكن الذي حدث هو انهم ايقظوا الاصالة العربية ، فحتى أشد الناس تحمسا لثقافة الغرب لم يحاول اكثر

من أن ينشيء جسورا بين الثقافة العربية الاصيلة والثقافة الاوروبية الجديدة بقدر ما مكنه من ذلك وسعه واجتهاده لهذا لم نعد نسمع هجوما سافرا على الدين الاسلامى او اللغة العربية . ولكن الذى يجرى آلان تحت أسماعنا وابصارنا ـ وربما بمساعدتنا أيضا ـ هو فى تقديرى اخطر من اى هجوم سافر .

فاللغتان الانجليزية والفرنسية ـ على الخصوص ـ تبسطان على العالم العربى جناحين عريضين : الاقتصاد والتكنولوجيا ، ولا غنى لنا عن الاقتصاد أو التكنولوجيا اذا أردنا أن نعيش فى عالم اليوم . استيراد التكنولوجيا مطلب مهم من مطالب العالم الثالث ، واجتذاب رءوس الاموال الاوروبية والامريكية ضرورة لجأت اليهـا الدول الفقيرة لتنمية مواردها الصناعية والزراعية ، والعمل في المؤسسات الجديدة المشتركة هو أمنية كل شـاب طموح ، واتقان اللغة الانجليزية أو الفرنسية أو احـدى اللغات الاوروبية الاخرى او عدد منها ان امكن ـ هو جواز المرور الى المناصب العالية والمكافآت السخية ، وهـكذا يشتد الاقبال على تعلم اللغات الاجنبية ويحرص الشاب أو الفتاه على ان يلويا لسانهما بلكنة القوم .. ويلتحقان بمدارس اللغات ويقتنيان شرائط الكاسيت ويتقدمـان في ألغة الاجنبية على قدر ذكائهما واجتهادهما بينمـا لغتهما العربية مهملة مجفوة يقرآنها ـ ان فعلا ـ فى صفحات من جريدة أو مجلة ، ولغة الصحافة فى الاعم الاغلب تميـل الى التبسيط ، وتنفر من التحديد ، ومع انها مشكورة لمحافظتها على العربية الفصحى كلغة ثقافية حية .. فلم يعد خافيا على احد كثرة الاخطاء اللغـوية التى تقع فى لغة الصحافة ، وربما لم تسلم منها بعض

العناوين ، والكلمة المطبوعة فى الصحيفة تنطبع فى اذهان قراء كثيرين ، وهكذا تساعد الصحافة على اشاعة الخطأ وتثبيته على الرغم من الخدمة الجليلة التي تؤديها ..

كأني بأحدهم يستوقفني قائلا : وماراءيك ياهذا فى قولك: « كلغة ثقافية حية » ؟ الا ترى انك تساهم في اشاعة الخطأ ، فالكاف لا تستعمل هنا في الفصيح ، لكن عليك أن تسقطها وتنصب « لغة » على الحالية ..

نسيت أن « احدهم » لا يمكن أن يقول « تساهم » فلاشك أنه قال « تسهم » ولكنني رويت كلامه ، كما ترون ، بلغتي هذه التى أحرص فيما يبدو على أن أزخرفها بالاخطاء ..

سأقول له : وماراءيك انت يامولانا فى أن الكاف مقتطعة من كى ، وان كى مقتطعة من كيف ، والكيف معروف ومفهوم ، وهو أقرب شيء الى ماتراه أنت فى معنى الحال ؟

ولكنه سيصفنى بالمكابرة او ماهو شر منها ...

وهكذا يتقدم الشاب الطموح او الفتاة الطموح « أيضا ، وحسبى مالقيت من الكاف » فى اللغة الاجنبية ويبقى ـ على احسن تقدير ـ ثابتا فى مكانه بالنسبة الى لغته العربية ، وسيمضى فى طريقه الصاعد حتى اذا تسنم ماكان يحلم به من المناصب العالية لقيته فى الجلسات والمؤتمرات بين نظرائه الاجانب ، يخاطبهم بلسان اعجمى فصيح « لست انا المسئول عن هذا التناقض » . ورأيته فى مكتبه الفخم يضطجع فى كرسيه الرائع ويملى على سكرتيرته الاعجمية او المستعجمة كتابا الى احد عملائه

بذات أللسان الاعجمى ولكن بأسلوب أشد فصاحة ..
فان اضطر المسكين الى أن يسود مقالا او بيانا ليبعثه الى صحيفة عربية او يحرر خطابا ليلقيه فى محفل من ابناء العرب ، رايته كالغريق الذى يتعلق بقشة ، وربما كانت القشة هنا موظفا صغيرا فى مكتبه ، قيل له انه ضليع فى العربية فهو يشرح له قصده بعامية غير مبينة، ويمهله ألى الصباح ليأتيه بكتاب محبر ، أو خطبة عصماء، مشكولين بالشكل الكامل ، مملوءين بالمترادفات والمحسنات فهذه هى البضاعة الوحيدة التى يملكها الموظف المغمور ، وهذه هى الوسيلة الوحيدة ـ وقد واتته الفرصة ـ لاظهار امتيازه ..

وهكذا تنكمش العربية لتنحصر فى العامية وما يشبه ألعامية من تلك « اللغة الثالثة » التى يتحدثون عنها ، مضافا اليهما خزعبلات « أللغة التذكارية » المخصصة للاحتفالات ..

وتصبح اللغة الاولى هى اللغة الانجليزية أو الفرنسية لانها لغة الاقتصاد ، لغة العلم ، لغة الثقافة ..

التطور اللغوى وقوانينه

زعم بعض من يدعون العلم ويبطنون العداوة لهذه الامة ان للتطور اللغوى قوانين لا تتخلف ، وعلى راس هــذه القوانين أن اللغة الام تنقسم الى لهجات ، فاذا استكملت اللهجة مقومات اللغة اخذت مكان اللغة الام .. وهــكذا دواليك : أجيال من اللغات يعقب بعضها بعضا ، كما تتعاقب أجيال الناس .

وتفرع من هذا « القانون الاساسى » قوانين فرعية لا تحصى ، تتناول انواع التغير التى تطرأ على اللغــة القديمة أثناء تحولها التدريجي الى ان تأخــذ الشــكل الجديد . ونحن هنا لا نناقش هذه القوانين ، ولا نطعن فى اصل النظرية ، بل نكتفى بأن ننبه الى انها « نظرية »، وانها ــ ككل نظرية ــ لا تطمع فى اكثر من ان تكشــف جانبا واحدا من الحقيقة ، والحقائق فى أمر تطور اللغات، كالحقــائق فى غيره من أحــوال الــكون ، كثــــيرة كثرة لا تحيط بها عقول البشر ، ولكنها تنتظر دائما من يكشــف عن بعضها ، وانما تتجلى لعقل الانسان بقــدر حاجته واستطاعته .

والعقل الاوروبى فى القرن التاسع عشر كان محتاجا الى البحث فى الاجناس البشرية لانه تجاوز حدود الدولة والاحلاف الدولية الى السيطرة على العالم ، فلم يكن له بد من « توصيف » سكان هذا العالم ، وكان مســتطيعا ان يقوم بهذا التوصيف ، وما يتبعه من تصنيف ، لان

علوم الاحياء كانت قد تقدمت تقدما كبيرا وهـــذه العلوم تعتمد أول شيء ـ كما هو معروف ـ على التوصـيف والتصنيف . وكان العقل الاوروبى يريد أن يغير خريطة العالم سياسيا واجتماعيا وثقافيا ، فنظر الى الكون كله من منظور « التغير » وبحث فى قوانين التغير ليحسن استغلالها وتوجيهها .

ولكن العقل الاوروبى اليوم لايريد التغير ولا يستطيعه ولا يحتاجه . لذلك ينظر الى الكون من منظـور الثبات : حتى فى العلوم الطبيعية سمعنا عن شيء أسمه ثبات الطاقة وفى الاقتصاد قرأنا عن ثبات القيمة وان تغير موضـعها بالنسبة لمصالح الافراد . هذه موضوعات لا يمكننى علمى المحدود ـ بل المحدود جدا ـ من الخوض فيها ، ولكننى أتمنى لو يهتم ببحثها بعض علمائنا الفضلاء ، أما عـلم اللغة فالنقلة فيه واضحة ومحددة وصريحة : فقد أعلن دى سوسير ـ ابو علم اللغة المعاصر ـ ضرورة التحول من بحث التغيرات اللغوية الى بحث اللغة كبناء ثابت متكامل ، وكتب كتابه الشهير « محاضرت فى علم اللغة العـام » « ١٩١٥ ــ وقد تولى تلاميذه جمعه بعد وفاة الاستاذ » الذى أصبح دستورا لا لعلم اللغة المعاصر فحسب ، بل لسائر العلوم الانسانية ، ومصدرا اساسيا من مصـيادر الفلسفة البنيوية التى تسيطر اليوم على هذه العلوم .

هذا شأن جميع النظريات التى تلقيناها ولا نزال نتلقاها عن الغرب ، ونسلم بها تسليم البلهاء ، لا تسليم العلماء . كسور صغيرة من الحقيقة ، اقتطعها القوم لتخدم اغراضهم وهذا لا يطعن فيها ولا فيهم ، فعلم الانسان بطبيعته محدود انما الذى ينبغى أن تنفطر له القلوب من الكمد والحسرة ، أننا نحسب هذه النظريات هى أول العلم وآخره ، ولا نجد

فى انفسنا الشجاعة او الهمة لنواجه واقعنا ونستوضح فكرنا فى العلم النافع . لا نعدو المصالح الصغيرة القريبة، او التكاليف الدينية الضرورية ، مع أن التكليف بعمارة الارض اعم واشمل ، والنظر فى اصول العلم اعظم عائدا من النظر فى جزئياته . ولكن اشق التكاليف على الانسان هى فكرة التكليف نفسها . وليس أسهل ولا أروح للانسان من أن يسلم قياده لغيره ، الا أن يحفزه حافز من مصلحة مادية « كما هو شأن الغرب فى نهضته الحديثة » او غيرة دينية « كما كان شأننا حين شيدنا حضارة عظيمة » .

وواقع حالنا الذى لا يخفى على ذى عقل ، اننا نمر بمرحلة تغير متسارع منذ بدايات هذا القرن على الخصوص وصحيح أن التغير بدا قبل ذلك بنحو قرن اخر ، ولكنه كان تغيرا بطيئا متعثرا ، غير واضح الاتجاه ، على الرغم من وضوح الاهداف ، اما الان فقد أصبح الاتجاه واضحا، مع أن الاهداف غير واضحة ! وهذا لغز من الغاز تاريخنا الحديث قد نحاول حله فى مناسبة أو مناسبات أخرى . اما الآن فلنكتف بالقول اننا ، شئنا او ابينا ، ننظر الى الاشياء من منظور التغير ، حتى حين نحاول أن نقاوم هذا التغير فى مختلف جوانبه ، وليس التغير اللغوى بأهون جوانبه .

ولكننا أخذنا مفاهيم التغير من أوروبا ، وهذا هو السر فى سيطرة النزعة الرومنسية على تفكيرنا وسلوكنا حتى الان ، فهى لاتزال أنسب البضائع الاوروبية لاستهلاكنا وكل ماجاءنا بعدها من مبتكرات ، من الواقعية الى البنيوية كان اما ضعيفا محدود الاثر واما مصطبغا بصبغة رومنسية .

وهذا هو السر كذلك فى أن المفهوم الرومنسى للتطور

اللغوى ظل عالقا بكثير من الاذهان عندنا ، مع أن الدراسات اللغوية المعاصرة فى أوروبا وامريكا لم تعد تهتم به ، وهو اهمال ينطوى ــ فى الحقيقة ــ على عدم اعتراف بعلميته .
المفهوم الرومنسي للتطور اللغوى ، مطبقا على الاوضاع اللغوية فى العالم العربى ، يقول ان العربية الفصحى هى « لاتينية الشعوب العربية » ، وان هذه الشعوب ستضطر حتما الى التخلى عن الفصحى واتخاذ لهجاتها العامية لغات للتعليم والعلم والثقافة والادب ، وان هذا الوضع لا يختلف عن الوضع فى البلدان الاوروبية فى بداية عصر النهضة عندما تخلت هذه البلدان عن اللغة اللاتينية كلغة مشتركة فى حقول التعليم والثقافة ، واستعاضت عنها بلغاتها المحلية .

وكان المستعربون الذين جاءوا الى بلادنا فى ركاب الاستعمار يروجون لهذه الفكرة ، وكان المستغربون « بالغين المعجمة هذه المرة » منا يذيعونها على انها حقيقة لا تقبل الجدل . وكان المدافعون عن الفصحى يسكتون عن مناقشتها ويفضلون الاعتماد على حجج أخرى . ولا اعا احدا من هؤلاء المدافعين تنبه الى أن التطور الذى يتحدث عنه مشبهو العربية باللاتينية ليس هو النمط الوحيد من التطور الذى يعرفه تاريخ اللغات .. فكثيرا ماتوحدت اللهجات لتكون لغة مشتركة ، وهذا هو ماعرفته اللغات الاوروبية الحديثة نفسها ، اذ أنها حين انفصلت عن اللاتينية بحكم ذلك القانون اللغوى الذى زعموا ، تشكلت هى نفسها من عدة لهجات متقاربة فى الخصائص والمكان بحكم قانون آخر ، أو من تغلب احدى اللهجات المتميزة على سائر تلك اللهجات . وما بقى من اللهجات منفصلا فى مجتمع منعزل حكم على نفسه بالبقاء فى مستوى أدنى

كواسطة للاتصال الثقافى . وكل بلد يكاد يكون نموذجا قائما بنفسه من هذه الناحية . اى اننا لسنا هنا بصدد قانون ولا حتى قانونين ، بل ربما كان المسئول عن هـذا التطور قوانين كثيرة متشابكة ، ولعل بعضها غير ذاتى فى اللغة .

وهذا مايقوله علم اللغة المعاصر ـ الاوروبى ! فسوسير يقرر صراحة أن تحديد ماهو لغة وماهو لهجة ، قـرار اجتماعى سياسى . وها نحن أولاء نرى فى عبرية اسرائيل دليلا عمليا على ذلك .

على ان قول سوسير هذا لا يغنينا عن البحث فى قوانين التطور اللغوى انطلاقا من واقعنا ، وان أغنانا فى رفض الفكرة الاستعمارية القديمة ، وشهد شاهد من أهلها .

الفصحى وبناتها

كنت أرى دائما ان الاهتمام بدراسة اللهجات العامية والآداب الشعبية لا يناقض الحرص على الفصحى . ولم اكن ارى بأسا بأن تدخل العاميات فى الحوار المسرحي والقصصي ومازال هذا رأيى . فقد حفظت عن أستاذنا ابراهيم مصطفى « صاحب احياء النحو » كلمة كثيرا مارددها فى دروسه : ان العامية هي الابنة البارة للفصحى وكان ــ رحمه الله ــ يقصد العامية المصرية بطبيعة الحال ولكننى وجدت قوله ينطبق على عاميات البلاد العربية كلها . وما احسن قولهم فى الجزائر « تلك التى زعموا ان الفرنسية غلبت على السنة أهلها » « مازال » حيث نقول نحن فى مصر « لسه » ــ ولو ان هذه مقتطعة من « للساعة » كما يقول الفرنسيون CHPA عوضا عن Je ne Saispas ــ وقولهم ايضا ــ اى الجزائريين « عييت » اى تعبت . أما آداب العاميات العربية فهى معرض حى لكل اطوار الحضارة ومذاهب الفن التى عرفتها هذه الامة . وقد سمعت من شعر البادية السودانية عن القرة « واحدة القر اى البرد الشديد » والسيل ما اذكرنى الفرزدق وامرأ القيس . وتفضل علينا زميلنا الدكتور سعد الصويان بقراءة قصيدة نبطية لاحد الشعراء النجديين المعاصرين ، فبهرنا ببنائها الفني المحكم على نسق مطولات العصرين الجاهلى والاسلامى ، بل تجلى لنا فيها من أسرار العربية الفصحى مايعين على مراجعة أقوال النحاة الاقدمين الذين اختلفوا ــ مثلا ــ حول جواز كثير

من الاساليب او شذوذها أو اختصاصها بلغة الشعر ، أما أزجال المصريين المعاصرين فتنحدر رأسا من نبع البهاء زهير ، الفتى الحجازى الذى تفتحت عبقريته فى صعيد مصر ، وأعظم شعراء العربية فى القرن السابع على الاطلاق .

العلاقة بين الفصحى وآدابها من جهة ، والعاميات وآدابها من جهة أخرى ، علاقة تكامل لا علاقة تعارض فمن الناحية اللغوية الصرف ليس بينهما من التباعد مابين اللاتينية وأقرب اللغات الاوروبية الحديثة شبها بها ، وهى البرتغالية فيما يقال . ومن الناحية الثقافية ليس للعاميات تراث الا فى الفصحى . وكلّ محاولة لربطها « بروح » أقليمية ليست الا ضربا من التفكير الميتافيزيقى الذى لا سند له من الواقع ، وكل محاولة لربط أبداعاتها الجديدة بتراث فرعونى أو فينيقى أو اشورى أو غير ذلك ، ليس الا جهلا بسنن الحضارة ، فالحضارات القديمة قد أدت رسالتها العالمية وأضافت ما أضافت الى تراث الانسانية ، ولكنها ماتت وانتهت . فالحلم باحيائها يوشك أن يكون ضربا من الجنون ، أن لم يكن هو التضليل المتعمد .

ويجب أن نميز تمييزا واضحا بين أمرين : الدعوة الى دراسة اللهجات والاداب العامية من جهة ، والدعوة الى اتخاذ احدى اللهجات العامية لغة ثقافية من جهة أخرى . الدعوة الاولى تستند الى اطار مرجعى واضح . وهو اللغة الفصحى وآدابها ، وهذا هو الاساس العلمى المنهجى السليم لدراسة العاميات ، نظرا للارتباط الوثيق بينها وبين الفصحى كما تبين لك ، والمقصود بالاطار المرجعى هو أن تستخدم التعريفات والتصنيفات التى

تستعمل في دراسة الفصحى عند دراسة العامية .
أما الدعوة الثانية فانها تستند ضمنيا الى زعم بانفصال العامية عن الفصحى ، ومن ثم فهى تسقط هذا الاطار المرجعى عمدا ، لتستعير اطارا آخر من لغة غربية وادب غربى « فعلماء اللغة لم يفلحوا حتى الان فى استنباط قوانين عامة تصلح للتطبيق على جميع لغات العالم ، وهكذا شأن علماء الادب ، مع أن مهمتهم ربما بدت أسهل » .

والغريب ان دعاة العامية كثيرا مايصرحون بذلك ، اما عن جهل منهم واما عن ثقة بجهل الآخرين . فهم يقولون ان اقتباس المفاهيم الغربية عن اللغة والادب يصلنا مباشرة بالثقافة العالمية ، فيستقيم فكرنا على مناهج الغربيين ، ويغترف شعرنا من ينابيع الميثولوجيا اليونانية !

وعند هذه النقطة ينقطع الحوار العلمى . فهؤلاء يتوهمون ، لذلتهم وهوانهم على انفسهم ، انهم يستطيعون — ببساطة — أن ينسلخوا من وجودهم ، ليكونوا غير ماهم ، ناسين ان هذا هو الانتحار بعينه . وسواء أن يكون الانتحار حسيا أو معنويا « بعضهم — على كل حال — اقدموا على الاول حين لم ينفعهم الثاني » فنحن نقول لهم انتحروا فرادى ان شئتم ! أما الامة فلن تنتحر !

هذا جانب من الاوضاع الاجتماعية التى ستحكم — فى النهاية — مصير الفصحى والعاميات . ولكن هذه الاوضاع نفسها غير حتمية . هناك قوة عالمية تحاول أن تفتت ثقافتنا او تذيبها ليسهل عليها ابتلاعها ، وعندئذ تنتهى حضارتنا وتصبح حديثا فى كتب التاريخ .

ولقد أجتازت هذه الحضارة قرونا من الظلم والظلام دون أن تموت ، بل ظلت قوتها كلها كامنة فى هذين : الدين واللغة ، ومادمنا مكلفين بالدفاع عن ديننا وهو جوهر حضارتنا ، فنحن مكلفون أيضا بالدفاع عن لغتنا. ولكن « الدفاع » ليس مجرد كلمة تقال : الدفاع فعل انسانى . بل هو فى قمة الافعال الانسانية لان هدفه هو المحافظة على الذات . والافعال الانسانية ان لم تقم على فهم وتعتمد على اختيار كان أثرها عكسيا .

الدفاع عن اللغة العربية غرض حيوى لنا كأمة عربية ، ولكن توجيه هذا الدفاع واعداد وسائله وتنظيم أساليبه ، وظيفة علماء اللغة . ونحن لا نقصد « بعلماء اللغة » النحاة وحدهم « لعلك تلاحظ اننا لم نشر - حتى الان - الى قضية النحو من قريب أو بعيد » بل كل من يعنون بدراسة اللغة بوصفها خاصية انسانية مرتبطة من ناحية بجهاز الانسان الصوتى ومن ناحية اخرى بنشاطه الفكرى، وبوصفها مؤسسة اجتماعية لا غنى عنها لاستمرار أية جماعة بشرية فى الوجود كجماعة . وقد اصبحت هذه الجوانب موضوعا لتخصصات مختلفة . منها علم الاصوات وعلم الدلالة وعلم النفس اللغوى وعلم الاجتماع اللغوى .

وكثير من موضوعات هذه الفروع يجمع تحت ما يسمى علم اللغة العام ، ونحن لا نتحدث عن شيء منها بالتفصيل ولا ندعى القدرة على ذلك ، وانما نقرر ملاحظة كلية قد يوافقنا عليها المتخصصون هى أن علماء اللغة الاوروبيين والامريكيين اليوم منصرفون عن دراسة التغيرات اللغوية الى دراسة النظم اللغوية . ومن الموضوعات التى لايكادون يلمون بها الان موضوع الصراع اللغوى . وهذا الموضوع بالذات هو الاجدر باهتمام علماء اللغة العرب فى الوقت

الحاضر . فقد تجاوزت قضية اللغة العربية حدودها المعروفة فى الجدال بين المحافظين والمجددين ، واصبحت قضية قومية تعنى الجميع . اننا نشعر بوضوح متزايد أن التهديد الحقيقى للغة العربية الفصحى وتراثها لا يأتى من قبل اللهجات العامية وآدابها ، بل من قبل اللغات الاوروبية التى تعمل منذ زمن غير قصير على أن تصبح لغة الصفوة فى البلاد العربية . ان اللغة الفصحى تظل — مادامت هى لغة الثقافة العليا — مسيطرة على لهجاتها ، وتظل بينهما تلك العلاقات المتشابكة الحية التى تكون بين الطبقات فى المجتمع الواحد : علاقات أخذ وعطاء ، ودرجة من تقسيم العمل ، ولكن اللغة الاجنبية الواغلة تدمر هذا النسيج المتشابك كله . وهذا مايجب أن نحرص الا يكون ، ولا سبيل الى منعه الا بمعرفة مسالكه . .

معرفة هذه المسالك ، بواسطة الدراسات التاريخية والدراسات الميدانية المعاصرة أيضا ، هى المهمة التى يجب أن ينتدب لها علماء اللغة العرب ، والمجال الذى يمكنهم ان يثبتوا فيه أصالتهم ، ويقدموا اضافتهم الثمينة الى الحصيلة الانسانية فى علم اللغة . .

« بزبس إنجليش »

انتشرت اللغة العربية فى اعماق القارة السوداء على أيدي التجار العرب . فهل تنكمش اليوم في عقر دارها امام الشركات متعددة الجنسيات ؟

الاقتصاد عصب الحياة ، والناس مذ كانوا وراء لقمة العيش ، ومادام العمل فى شركة عالمية لا تستخدم فى معاملاتها الا اللغة الانجليزية او الفرنسية او الالمانيـة او الايطالية هو امنية كل شاب طموح ، فطبيعى أن يهتم باتقان واحدة أو أكثر من هذه اللغات ، وطبيعى أن يتم ذلك على حساب لغته العربية ، وطبيعى أن نصحو ذات يوم فنجد لغة اجنبية ما قد أصبحت هى لغة الصفوة ، لغة العلم والثقافة والادارة ، بينما انحصر استعمال اللغـة العربية « لا يهم الآن ان كانت فصحى أو عامية أو وسطا بينهما » فى شئون الحياة اليومية ، كسائر اللغات القبلية او المحلية ..

وليس اسهل من أن نطالب الحكومات بفرض اللغـة العربية على هذه الشركات وليس اصعب من تنفيذ هذا المطلب السهل . فالتغيرات اللغوية لا تتم بقرار . وليس معنى هذا أن هناك نوعا من الحتمية فى تطور اللغات . تطور اللغة انعكاس لتطور المجتمع ، أو على الاصح جزء منه ، فلا يمكن أن يتم بقرار واحد ولو بدا انه يضرب فى صميم المشكلة ، ولكنه يتم بمئات من القرارات أو آلاف ،

فى كل مجال من مجالات الحياة ، وما كل قرار يحقق الغاية المرجوة منه .. انما القرار المفيد هو ذلك الذي يراعي امكانية التنفيذ . وهذه الامكانية مرتبطة بظـروف كثيرة بعضها يمكن التحكم فيه وبعضها لا يمكن التحـكم فيه ، وكثيرا مايتطلب اتخاذ قرار جوهرى واحد نجاح عدد كبير من القرارات الممهدة ، حتى تتهيأ الظروف لنجاح ذلك القرار الاخير ..

واذا لم تخنى الذاكرة فقد جرب فرض استعمال اللغة العربية على الشركات الاجنبية فى وقت من الاوقات . كما فرض عليها أن تستخدم نسبة معينة من موظفيهـا من ابناء البلاد . ونجح القرار الاخير « بصرف النظر عن نسبة الموظفين الوطنيين ومستوياتهم » فى حين ترك القرار الاول حبرا على ورق. فلماذا؟ لماذا لم تستطع الحكومات العربية التى فرضت استعمال اللغة العربية على الشركات الاجنبية ان توجد واقعا عمليا بواسطة هـــذا القرار ، وهبها نجحت فى ذلك ، فماذا كانت اللغة العربية تستفيد من هذا النجاح ؟

لاشك انها كانت تفيد الحد من اقبال الشباب على تعلم اللغات الاجنبية ، ولكن هذا ليس مكسبا فى ذاته .. فان ضعف الشباب فى اللغات الاجنبيـــة لا يستتبع بالضرورة قوتهم فى اللغة العربية . « هذا بحث مهم .. ويجب أن نعود اليه فى مناسبة أخرى » ، وانما المكسب الحقيقى هو ان تزداد اللغة العربية ثراء باتساعها لجميع مطالب الحياة العصرية ، سواء منها مايتصل بحـاجات الناس اليومية وما يدخل فى أخص اهتمامات العـلوم الدقيقة ، فهل كانت الشركات تستطيع ان تحقق ذلك ؟

ان أكثر الناس تسامحا فى اللغة يمكنه أن يتصور مافقد

يفعله كاتب أو مترجم فى شركة لتعليب الاســـماك أو لصناعة قطع غيار السيارات حين يكون عليه أن يعـد دليلا بالعربية لمنتجات شركته ، أو يترجم تقريرا لاحـد خبراء الشركة عن مسالة فنية دقيقة « فمن المؤكد أن ذلك الخبير نفسه لن يتسع وقته لدراسة العربيـــة » .. بل المسألة لا تحتاج الى جهد كبير فى التخيل ، فلدينا نماذج صغيرة من هذا الادب العلمي فى وريقات مصانع الادوية وفى البرامج العلمية القصيرة التى تقدمها الاذاعات بانواعها ، أنها لغة جديدة غير مفهومة ، مع أن العلم الذى يفترض انها تقدمه قليل جدا ..

ان التطور اللغوى الاساسى لا يمكن أن تقـــوم به الشركات الصناعية ولا البرامج الاذاعيـــة ولا المقالات الصحفية ، انه لا يمكن أن يتحقق الا بتخطيط ثقـافى منظم ..

ولا تنخدع بقول بعضهم أن التطور اللغوى يسير مــن تلقاء نفسه ، وانه يسير وفق سنن اجتماعية لا تتخلف . فالله الذى أوجد هذه السنن لم يجعلها علينا قدرا مقدورا ــ تعالى الله أن يجعلنا مكلفين ومجبرين فى الوقت نفسه ــ ان الله جلت قدرته جعل للتطور اللغوى أكثر من سبيل واحد . فمن اخذ فى سبيل منها أوصلته مرحلة الى مرحلة تالية ، فلا يزال حتى يبلغ نهايته ، ونهايته اما الضـــلال والهلاك ، واما النجاة والفوز ..

واخشى ان يكون الطريق الذى سلكناه حتى الان مفضيا الى شيء شبيه بما يسميه الانجليز **Pidgin English** وهو انجليزية مختلطة بالصينية يتكلمها البحارة وصغار التجار فى موانيء الصين حين يخالطون الاجانب ، ويكاد يغلب على لغتهم الاصلية ، ولكى لا تحسب أنى أخيفـك

او أهول عليك ، انبهك الى أن Pidgin هي النطق الصيني للكلمة الانجليزية Business « التجارة » ، وأذكرك بأن العامة في مصر يقولون أيضا « بزبس » ، وربما تمثلوا بأمثال الانجليز فقالوا : « بزبس از بزبس » « الشغل شغل » وربما قالها المثقفون تماجنا وتشبها بالسوقة . .

واذا كان الله قد لطف بنا حتى اليوم ، فلم يدخل اسم ال Bizbis English في معاجم اللغة الانجليزية ، فيجب ان نتقى غضبه اذا نحن مضينا على مانحن عليه من تفريط في اغلى ماوهبنا اياه ، وهو لغتنا التى أودعها كلماته . والحفاظ على هذه اللغة لا يعنى حبسها في جب، بل المحافظة عليها حية قوية نامية قادرة على الوفاء بكل جديد ، وصد كل معتد ، ولاسيما هذا البزبس انجلش ، ولا تحسبن ـ مرة أخرى ـ انى أهول حين اقـــول ان خطره علينا ربما غدا أشد من خطر أخيه على أهل الصين . . فاذا كان البدجن انجلش لغة للبحارة وصغار التجار فان البزبس انجلش يوشك في ايامنا هذه أن يصبح لغة للعلماء والمهندسين والاطباء . قال لى مرة استاذ في كلية الطب ، وكان الحديث عن ضرورة تعريب الدراســـات العلمية في الجامعات : هـــل تصـــدق اننا نعلم الطب بالانجليزية ؟ الواقع اننا ندرس بالعربية ، أو بالعامية ، ان شئت الدقة . نحن نستعمل المصطلحات الانجليزية ولكننا نربط بينها بأفعال وادوات من اللغة الجارية . واعترف لى طبيب شاب ان الانجليزية المستعملة في محيطه أقرب الى انجليزية عوام الانجليز وانهم لايحسنون غيرها.

ولعل هذه هى حال سائر « المهن الراقية » .. التى لا تزال تدرس فى جامعاتنا باللغات الاوروبية ..

وليس فى الامر غرابة ، فاتقان لغة أجنبية ليس بالامر السهل ، وقلما يمكن الجمع بينه وبين اتقان علوم المهنة .. انما تصادف من يتقنون اللغة الاجنبية اما فى طبقـــة المتخصصين فيها واما فى طبقة المديرين وموظفى العلاقات العامة وأمثالهم .. وهكذا تعجز اللغة الاجنبية عن أن تكون لغة ثقافة ، وان أصبحت لغة مهنة ، فبينما تجـد الطبيب أو المهندس أو الكيميائى أو الصيدلى الذى تعلم مهنته بلغته الام مثقفا بتذوق الادب والفن ويعنى بالشئون العامة ، تجد نظيره العربى لا يكاد يعنى بغير مهنتـــه ، فاذا تكلم فى شأن من الشئون العامة كان ضيق النظرة ، واذا تناول كتابا فى الادب لم يطق عليه صبرا . واذا تأملت وجدت أن القلة التى تتمتع بسعة فى الافق وحب للثقافة هم أولئك الذين احبوا لغتهم واهتموا باتقانها ولو فى فترة من حياتهم ..

هذا سبيل أن مضينا فيه فلن ينتهى بنا الا الى احدى اثنتين .. اما أن نتخذ احدى اللغات الاوروبية لغـــة ثقافة وفن بعد أن اتخذناها لغة علم واقتصاد . فنبــدع ابداعنا بغير اللغة التى رضعناها ونحن في المهد ، واما أن نكتفى بثقافة بدائية مجهولة التاريخ ، مجهولة المصير ..

الحرب اللغوية الباردة

لعل كثيرا من القراء يحسبون ان الحديث عن الحرب اللغوية او الصراع اللغوى ضرب من المبالغة أو التهويش او الاثارة .. والويل للكاتب اذا نسى قصة الراعى الكاذب .. ولكنه ربما وجد نفسه كاخى غزية .

امرتهمو امرى بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد

ولقد يبح صوته فلا يسمعه احد ولا هو ينتهى ... أعاذنا الله واياكم من ذلك .

اننا نرى حال اللغة العربية فى مدارسنا وجامعاتنا لا يسر .. وكلنا يهتم لهذه الظاهرة ويحاول مخلصا ان يجد لها حلا .. ولا أحد ينكر أنها قضية تعليمية بالغة الخطورة ، ولكننا قلما نفكر أنها قضية قومية أخطر . بل قضية حياة أو موت ! وانى لاربا بالامة العربية والاسلامية ان يقولوا كما قالت اليهود نحن أولياء الله واحباؤه . وأن يناموا على آذانهم ثقة بان الله جلت قدرته ضمن الحفظ لقرآنه ، ومادام القران محفوظا فالعربية محفوظة، الا فاعلموا ياقوم أن الله قادر انيحفظ القرآن بغيركم ، ثم لا يكونون امثالكم . أنما تدعون لتكونوا جديرين انتم وأبناؤكم بحمل ذلك القرآن المجيد .

وقد تعودنا أن نعلق كل عيوبنا واخطائنا فى عنق الاستعمار .. ونسينا أننا ماكنا لنستعمر لولا هذه

العيوب والاخطاء . وان الشكوى من الاستعمار وكيل التهم له ليسا سبيل الخلاص منه أو من آثاره . فهل تراني اعيد تلك القصة حين أتحدث عن الصراع بين اللغة العربية واللغات الاجنبية ؟ نعم ان الاستعمار حارب اللغة العربية حربا صريحة حين أحل اللغة الانجليزية او الفرنسية محلها فى معاهد التعليم ، فأصبحت العربية تدرس — ان درست — كلغة ثانوية فى كنف الانجليزية او الفرنسية ، وقد لقيت من اخواننا التونسيين — مثلا — من قرأ النحو العربى فى كتب فرنسية . ولكننا طرحنا عن اعناقنا هذه التبعية حين تخلصنا من الاستعمار السياسي والعسكرى واصبحت لنا حكوماتنا الوطنية . وهكذا وضعت اللغات الاوروبية فى مكانها الطبيعى لغات ثانوية ، ولكن الطفل كان يبدأ تعلمها حين يبلغ السابعة او الثامنة . ثم لوحظ أن التلاميذ لايبلغون المستوى المرجو من اتقان لغتهم الوطنية. وذاعت نظرية تقول ان تعلم لغتين في وقت واحد يوقع الحيف على كلتيهما فاخر تعليم اللغة الاجنبية بضع سنوات : ومع ذلك لم ينتعش حال اللغة العربية فى مدارسنا وجامعاتنا ، بل على العكس ، لوحظ أن الطلاب يزدادون ضعفا فيها سنة بعد أخرى .

اذن لم يكن الاستعمار وحده هو المسئول عن تقهقر اللغة العربية على السنة ابنائنا وأقلامهم !

بل لم يكن تقليل ساعات اللغة الاجنبية وتأخير بدايتها فى معاهد التعليم عونا على اتقان تعليم اللغة وتعلمها !

للمشكلة — ولاشك — جانبها التعليمى الخالص . ولهذا حديث آخر . اما حديثنا اليوم فهو عن الجانب الاجتماعى

ولا يخفى أنه اساس العملية التعليمية . فالمدرسة او الجامعة لا يمكن أن تحاط بسور حديدى يمنع عنها كل المؤثرات الخارجية ، ولو أمكننا ان نفعل ذلك لما عادت لهما قيمة . اما من الجهة الاخرى فان المدرسة أو الجامعة لا يمكنهما ان تغيرا المجتمع الا الى درجة محدودة . ومن الظواهر الملحوظة فى مجتمعاتنا العربية أنها تفقد الكثير من مميزاتها لتكتسب تدريجيا صفات المجتمعات الغربية .. هذه ظاهرة يمكن أن تكون راجعة الى قانون طبيعى ، وهو تأثر الاضعف بالاقوى . وهذا القانون يظهر تأثيره بوضوح اكبر كلما نزلنا درجة فى سلم الوجود : فالجماد الضعيف يتأثر بالجماد القوى تأثرا لا فكاك منه : المسمار يخرق الخشبة . والخشبة تكسر البيضة . وفى الحيوان الكلب يمزق الثعلب ، والثعلب يفترس الدجاجة « سلاسل طويلة ، يمكن الرجوع اليها فى قصص الاطفال » .

اما الانسان فلا قوته تدوم ولا ضعفه ضربة لازب لان قوته وضعفه يرجعان اولا الى الروح . والروح لاتخضع لقوانين المادة كما يخضع الجماد او الحيوان . وهل كان يمكن أن نثبت لهجوم الحضارة الغربية قرابة قرنين من الزمان لولا هذه القوة الروحية ؟

ولكن حضارتنا ليست روحية محضا ، كماأن الحضارة الغربية ليست مادية صرفا ، فالحياة الاجتماعية ، كحياة الفرد ، كيان متشابك وعجيب يتداخل فيه الجانبان ويؤثر كلاهما فى الآخر . ولقد أصيبت مجتمعاتنابالتشويه بل التمزيق والبتر ، ولكن ذلك كله هين اذا بقيت الروح سليمة ، مؤمنة ، مريدة . لهذا اقول ان القضية اليوم

هى قضية حياة أو موت ، فاللغة هى المستودع الامين لحياتنا الروحية كلها ، ونحن اليوم نتوه فى هذا المستودع ونكاد نشعر فيه بالاختناق !

اليس هذا هو حال ابنائنا مع اللغة العربية ؟ ان هذه اللغة لم تسقط حين واجهها العدو فى حرب مكشوفة ساخنة . لقد حماها الدين الى أن عادت الى مكانها الكريم لغة قومية للعلم والثقافة والحياة . ولكن الصراع بين الحضارة العربية والحضارة الغربية لم ينته بنهاية الحرب الساخنة بينهما « ان كانت قد انتهت » . اننا نعيش مرحلة من الصراع يسميها بعض الناس الاستعمار الجديد ، ولهذا الاستعمار الجديد بلونيه : المذهبى « الشيوعى » .. والحر ! « الرأسمالى » أدواته السياسية والاقتصادية التى تعنى رجال السياسة ورجال الاقتصاد ، أما نحن فنتحدث عن أمور الثقافة وأداة الثقافة الاولى وهى اللغة . ونلاحظ أن لغتنا العربية التى حماها الدين لا تزال تلوذ بكنف الدين . اما فى أمور الدنيا من علم وفن ومعاملات فانها مستمرة فى تقهقرها أمام اللغات الاوروبية . نعم ، ان كونها هى اللغة الام يمنحها ميزة كبيرة ، فهى أخف على السنتنا حين نتعلم وحين نعلم وحين نشعر وحين نتاجر « لهذا نمتز بلهجاتنا العامية كما نعتز بلغتنا الفصحى » ولكنها تواجه بضغط من اللغات الاوروبية يجعلها تقف عند حد محدود فى هذا كله .. لم نعد نرى أية محاولة لفرض لغة أجنبية بقرار من سلطة اجنبية . ولكن الصراع مستمر ، كالحرب الباردة . وليس لهذا الصراع الا نتيجة واحدة من اثنتين : اما أن تخرج اللغة العربية لغة ثقافة عالمية « اى لغة

تحتوى على كل ثقافة العالم المعاصر » واما ان تتحدد مكانتها كلغة ثانوية بين أبناء العرب انفسهم . ولا ندرى ـ بعد ـ ماذا يمكن أن يحدث ، فقد ينتهى الامر بالفصحى الى أن تصبح لغة دينية لقط بجانبها فتات من عاميات مختلفة ، ليس لها ادب يؤثر ، الا أشياء من قبيل التمثيليات الاذاعية والتلفزيونية .

لو حدث ذلك فسوف يكون معناه اننا تركنا قانون « الاقوى والاضعف » يعمل فينا كما يعمل فى الجمادات ولن يكون فى استطاعتنا عندئذ ان نلوم الاستعمار القديم او الجديد ، فسوف يقع اللوم كله علينا ، لاننا لم نتحرك ـ عندما كان التحرك ممكنا ـ لدرء هذا الخطر ، حركة الانسان الم من المدرك المريد . ان المشكلة ـ كما يبدو ـ مشكلة ثقافية حضارية قبل أن تكون مشكلة لغوية ، فالخطر الذى يتهدد لغتنا نابع اصلا من تخلفنا الحضارى ولكن المسالة ليست بهذه البساطة : فثمة اغراء باننا قد نستطيع الخروج من هذا التخلف بسرعة اكبر اذا اتخذنا لغة من لغات الحضارة : وهنا تنشأ مشكلات لغوية محضة راجعة الى مايسمى بالازدواج اللغوى . كما أن تطور اللغة العربية حتى تصبح من لغات الحضارة الحديثة ينطوى على مشكلات لغوية أيضا . وهناك أمثلة لكلا الاتجاهين فى التاريخ القديم والحديث والمعاصر . وكلاهما يجب أن يكون محل عناية علماء اللغة العرب . الى جانب سائر المشكلات التى تتصل بالصراع اللغوى .

على ان مثل هذه الدراسة لا يمكن أن تجرى على المستوى النظرى وحده . فمشكلة الصراع اللغوى قائمة

ـ بدرجات متفاوتة ـ فى مختلف الاقطار العربية : ففى بعض هذه الاقطار لاتزال اللغة العربية تجاهد لتدعيم موقعها كلغة قومية . وفى أقطار أخرى تمر بمرحلة من الجمود ، وكانما اصابها الشك أو الخوف ، فاصبحت عاجزة عن احتلال مواقع جديدة . واخشى أن أقول انها أخذت تضمر فى بعض البيئات ، بينما اللغة الاجنبية تنتعش وتقوى . وربما كان هذا النموذج الاخير هو الاشيع والاشد خطورة . وأخطر مافيه اننا لا نكاد نشعر به ، بل اننا ـ أحيانا ـ نرحب به : ان رائحة الغاز تعلن عن نفسها ، فنفتح النوافذ لننجو من الاختناق : ولكن مارايك فيمن يموت مختنقا برائحة الورد ؟

« التعريب » فى الجزائر

فى قسنطينة ، عاصمة الشرق الجزائرى ، قلما تجد لافتة واحدة مكتوبة بالفرنسية . هم يسمون ذلك « تعريب المحيط » وقد يبتسم المشرقى منا حين يسمع هذه العبارة لان أول مايتبادر الى أذهاننا من كلمة «المحيط» ليس هو « البيئة » كما يقصدون بل هو واحد المحيطات الخمسة المعروفة . ولاشك أن تعريب أصفرها يحتاج الى مجهود خارق . وقد وضعت الدولتان العظميان علميهما على القمر ، ولكننى لا أعلم ان احداهما حلمت بفرض هيمنتها على أحد المحيطات، ولو كان المحيط المتجمد الجنوبى .

أما اخواننا الجزائريون فلهم فى تعريب المحيط طرائف تستحق أن تروى . فمن ذلك أنك اذا دخلت « المخازن الجزائرية » واجهتك لافتة كتب عليها « زوروا أشعتنا » ولعلك تفهم من « المحيط » أن المقصود بالاشعة هو الاقسام ، وقد تحار فى تفسير هذه التسمية الغريبة الى أن تتذكر أن الاقسام تسمى بالفرنسية Rayons

وأن هذه الكلمة من الاسماء المشتركة عندالفرنسيين وتعنى أيضا اشعة الشمس .

ولكن هذه الحماسة لتعريب المحيط لدى اخوتنا الجزائريين تقابلها حماسة مماثلة فى بعض مدن الشرق نحو فرنجة الاسماء . وقلما تجد فى القاهرة اليوم

حلاقا أو صاحب « بوتيك » لايضع على متجره اسما افرنجيا سخيفا مكتوبا بالحروف الافرنجية أو العربية. وقد نلتمس ألعذر للفنادق التى تستقبل السائحين ، ولكن مابال دور السينما التى لا يرتادها سوى أبناء العرب ؟ وأشد مايغيظنى أن يصبح ابو الهول « سفنكس» والاهرام « بيراميد » أما قاصمة الظهر فهى قلب الاضافة كما فى الانجليزية فلا تقول « فندق النيل » مثلا بل تقول « نيل هوتل » حتى ان قلت « نيل فندق » فهى أشد وانكى .

هذان مثلان ، متباعدان ومتناقضان ، للحرب اللغوية الباردة التى تجرى الآن فى مختلف أرجاء العالم العربى ولكنها فى الجزائر توشك أن تكون حربا ساخنة ، وان كانت تستخفى حينا وتستعلن حينا آخر . والاوضاع اللغوية في الجزائر بالذات تشكل صورة نموذجية لمعركة اللغة العربية في العصر الحاضر ، بكل ابعادها السياسية والاجتماعية والثقافية ، الى جانب بعدها اللغوى الخالص ثم هى خط من خطوط المواجهة الرئيسية التى تضع حيوية اللغة العربية وقدرتها على البقاء أمام امتحان عسير ، وهى اخيرا — مختبر كبير يمكن أن تصاغ فيه الحلول الناجعة لمشكلاتنا اللغوية .

الجزائر نموذج بارز لأثر الدين فى حفظ اللغة ، واثرهما معا في حفظ الشخصية الوطنية . لقد كان الشرق الجزائرى هو مهد « جمعية العلماء » ومهد الثورة فى الوقت نفسه . وكانت دروس الشيخ عبد الحميد ابن باديس فى تفسير القرآن الكريم دروسا فى الاصلاح الاجتماعي والاخلاقى ودروسا فى اللغة العربية السمحة

السهلة فى الوقت نفسه كما كانت مقالات الشيخ البشير الابراهيمى فى « البصائر » صورا من البلاغة العربيــة الاصيلة فى وضوحها وتماسكها وصلابتها، جسدت وعى الشعب الجزائرى بكيانه واصراره على استرداد حريته.

لذلك لم يكن غريبا أن أصبح « التعريب » هــدفا من الاهداف الاولى للدولة الجزائرية بعد الاستقلال . وهنا كان على اللغة العربية أن تخوض صراعا طويلا ، عــلى جبهة ثقافية عريضة ، بعد انتصارها على الجبهة الوطنية لم تعد الفرنسية تعتمد على سلطان المستعمر ، ولـكنها بقيت راسخة مطمئنة في المجالات التي أخذت اللغــة العربية تدخلها متهيبة وجلة لانها مجالات جديدة عليهــا مجالات العلوم الحديثة والفكر الحديث والادب الحديث، وكان المثقفون الذين تشبعوا بالثقافة الفرنسية ــ ومعظمهم لا يحسن أن يقرأ سطرا بالعربية وبعضهم مسئول عن التعريب ! ــ يفكرون على هذا النحو : الثقافة العربيــة لا تزال متخلفة بصورة تدعو الى الاسف، هذا حالهم فى مصر في الشام فى العراق ، لم نسمع بعالم واحد حقق كشفا مهما ، ليس فى دوائر المعارف أى ذكر لفيلسوف عربى واحد بعد ابن رشد . أدبهم لا يعرف ألا فى دوائر المستشرقين . ونحن متصلون فعلا بثقافة أوروبا ، ولنا مشاركة فيها ، أي أننا حققنا مايحلمون بتحقيقــه ولا يستطيعون الوصول اليه . هل من الوطنية اذن أن نختار التخلف بدلا من التقدم ؟

وكان انصار التعريب المخلصون لا يجدون امامهم الا الحجة القومية يفزعون اليها ، ان مستقبل الجــزائر

لا يمكن أن يكون مع أوروبا ، بل مع العالم العربى . وكانوا يملكون الحماسة ، ولكنهم لا يملكون الادوات ، وقد اتفق لى أن شهدت — فى أوائل عهد الاستقلال — مناقشة عظيمة الدلالة بين واحد من هؤلاء واستاذ مصرى . كان الموضوع هو تعريب التعليم الجامعى ، المثقف الجزائرى يحبذ بل يطالب ، والاستاذ المصرى يشكك ويعارض . وكانت حجة الاستاذ المصرى ان هذا التعريب يعزلنا عن الابحاث العلمية فى البلدان المتقدمة ، وكان جواب المثقف الجزائرى ان هذا كله يجب أن يترجم . واعترض الاستاذ المصرى بأن ترجمته تتطلب مجهودا لا نقدر عليه وكان رد المثقف الجزائرى الذى انهى النقاش وهو يبتسم فى ثقة : « سترى انها ممكنة ، وسننجزها » .

بعد ذلك بعشر سنين اخذت اتردد على الجزائر . ولاحظت ان التعريب لا يتم بالسرعة ولا بالنجاح اللذين تخيلهما المتحمسون . كانت الصدمة الاولى عندما هبطت مطار الجزائر وتناولت بطاقة الدخول فوجدت أحد وجهيها مطبوعا بالعربية والآخر بالفرنسية . سعدت بذلك واخترت الوجه العربى . ولكننى حين سلمتها الى الموظف الجالس قلبها واخذ يستمليننى البيانات ويدونها بالفرنسية على الوجه الاخر ..

وتحول التعريب الكامل للتعليم العام آلى نوع من الازدواج اللغوى .

أما التعليم العالى فقد قسم قسمين قسما فرنسيا وقسما عربيا .

وهكذا بدا أن فورة الحماسة الاولى قد اخذت فى الهبوط . وزاد من صعوبة الموقف أن التعريب وجد

معارضين صرحاء بين الاقليـــات البربرية التى لاتزال محتفظة بلغتها ، ووصلت هذه المعارضة الى حـد اثارة قلاقل خطيرة فى وقت من الاوقات .

كانت ثمة حقيقة تزداد وضوحا يوما بعد يوم ، وهى أن التعريب ليس عملا سياسيا فقط ولكنه عمل يحتاج الى تخطيط ثقافى محكم ، تشارك فى صنعه وتنفيذه كفاءات كثيرة لا تختص بالجزائر وحدها . لقد استقدمت الجزائر من المشرق آلاف المدرسين من كل المستويات ، ولكن التعريب كان يتطلب شيئا اهم من ذلك : كان يتطلب استراتيجية لغوية تعليمية ثقافية لم تبحث قط لافى المغرب ولا فى المشرق . وكانت الحاجة الى هـذه الاستراتيجية اشد الحاحا بسبب تضاعف حجم التعليم فى الدولة الوطنية . وهكذا كان فى استطاعة كل من اراد ان يقارن بين مستوى التعليم الفرنسى « السابق » ومستوى التعليم العربى « الحالى » ليخرج بنتيجة فى غير صالح التعريب . سمعت مرة أحد الاساتذة الفرنسيين الزائرين الذين تستقدمهم جامعة قسنطينة لفترات قصيرة يقول ان تلاميذ هذه الايام أضاعوا الفرنسية ولم يتعلموا العربية ، ولا ادرى الى أى حد كان مصيبا ، ولـكننى وجدت رفيقها الجزائرى يؤمن على قوله .

وعلمت ان الجزائر لا تزال تعقد مؤتمرات للتعـريب وتدعو اليها بعض الاساتذة الجامعيين من المشـرق . ومشكلات التعريب ـ فى تقديرى ـ لا تحل بمؤتمرات بل بمؤسسـات . وربما كانت المنظمة الثقافيـة التابعـة للجامعة العربية أولى من غيرها بالقيام بهذا الدور ـ لاأعنى بذلك ان يذهب ناس من المشرق الى الجزائر ليقوموا

بدور « الخبراء » وانما اريد استمرار البحث وتكامله .
ان الواقع ألجزائرى ـ كما أسلفت ـ مختبر عظيم يمكن البحث فيه عن حلول ناجعة للمشكلات التى تعانى منها فى المشرق أيضا . انهم هناك يبدأون فى تعليم العربية على اوسع نطاق . ويتطلعون الى ثقافة عربية على أعلى مستوى ، وهيكل اللغة العربية والثقافة العربية لم يقررا من قبل . ولذلك فان كل فكرة جديدة يمكن ان تبحث بدون مقاطعة وبدون خوف . والخيارات كلها مفتوحة .

الحول الفكرى

كان لى أخ أكبر منى ، تعلم فى ظل النظام الانكليزى الذى كان يفرض اللغة الانكليزية لغة تدريس فى معظم المواد . وكان ــ كمعظم ابناء جيله ــ يحرص على اتقان اللغة العربية بدافع قومى ودينى . ولكنه ظل حتى آخر عمره يحرص كذلك على أن يقرأ من حين الى حين كتابا باللغة الانكليزية ، وكان يقول لى مشجعا على اتقان هذه اللغة : « الذى لا يحسن الا لغة واحدة كالذى لا يبصر الا بعين واحدة » .

وعيت هذه الحكمة وعملت بها جهد استطاعتى . حتى ابصر بعينى كلتيهما ، ولكننى شعرت فى وقت من الاوقات اننى مهدد بالحول . الحول خلل فى انسجام حركة العينين ، ولست طبيب عيون ولكنى استنتج من حرصهم على تهيئة نظارة للاحول انه يجد صعوبة فى تركيز نظره على الشىء الواحد ، ولعل الصورة التى تبعثها العينان الى المخ أن تكون مضطربة او منحرفة بحيث يتعب المخ فى تصحيحها فيكون الصداع ودوار الراس .

وقد طالما دار رأسى وأنا أفكر فى الشىء الواحد باللغة العربية مرة وباللغة الانجليزية مرة . وخبرت كثيرا ممن يحسنون اللغتين فوجدتهم يعمدون الى حيلة طريفة تريحهم من الدوار ولكنها تجعل المثل الذى ضربه أخى خاليا من المعنى ، وهى أنهم يضعون يدهم اليسرى على العين اليسرى حين ينظرون بالعين اليمنى ، ويضعون

يدهم اليمنى على عينهم اليمنى حين ينظرون بالعين اليسرى . وبدلك ينظرون يمينا او يسارا بسرعه ومهاره وان بعضهم ليبلغون من الرشاقة وخفة الحركه مايصعب عليك معه أن ترى أيديهم ذاهبة آيبة عندما يتطلب الموقف ذلك .

ولكن المشكلة هى ان الواحد منهم لا يصبح شخصا واحد كامل البصر ، بل شخصين يملك كل واحد منهما عينا واحدة . وذو العين الواحدة ـ يقولون ـ لا يرى الا بعدين للاشياء ، أى أنه يرى الاشياء مسطحة كرسم على صحيفة . والادهى ان الشخصين المركبين على عينيهم ربما اختلفا حول صور الاشياء ، ومن هنا يكون ازدو. الشخصية أو انفصام الشخصية لدى الكثيرين من ذوى اللغتين والثقافتين .

لم أجد لى حلا الا أن أدرب عينى على النظر الى الشر الواحد فى وقت واحد ، دون أن تنحرف احدى العينين يمنة او يسرة ، حتى احصل على صورة صحيحة محددة الخطوط كاملة الابعاد بقدر الامكان . واظننى لن أكف عن هذه المحاولة مادمت قادراً على الابصار ، ولاشك أنى مازلت أصاب بالدوار أحيانا ، وازر عينى ـ رغم ارادتى ـ احيانا اخرى . حتى انى وانا أنظر الى هذه القضية نفسها لا ادرى هل أحصل على صورة متوازنة لها او تزيغ العينان وتختلط الحدود ؟

فعينى العربية تنظر الى قضية الازدواج اللغوى على انها قضية عامة ، تمس مستقبل هذه الامة كما تمس مستقبل كل فرد منها . ذلك لانى أعرف أن اللغة العربية هى الرابطة المتينة بين الافراد والطبقات والجماعات

والطوائف التى يتكون منها النسيج الحيّ لامة نسميها الامة العربية مرة ، والامة الاسلامية مرة أخرى ، واحفظ قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليست العربية لاحدكم من أب وام ، من تكلم بلسان العربية فهو عربى» ومادامت اللغة العربية هى الرابط الاساسى ــ أو أحد الروابط الاساسية على اقل تقدير ــ بين أجزاء الامة فان انحلالها يعنى انحلال هذه الاجزاء او يمهد له ويساعد عليه . لذلك تعنينى مشكلات اللغة العربية الواحدة المشتركة بين جميع أبناء الامة العربية ، كما تعنينى مشكلة « عربية » هذه اللغة العربية ، أى الصلات بين لهجاتها المختلفة ، وبين هذه اللهجات ــ فرادى ومجتمعة ــ والفصحى المستعملة ــ أو التى يجب أن تكون مستعملة ــ فى شئون الثقافة العليا ، كما هى سنة الله فى جمع لغات الارض ، وارى أن حل مشكلات هذه الفصحى ، بالنسبة الى التراث من ناحية والى متطلبات الحاضر من ناحية أخرى ، فرض كفاية على علماء اللغة العرب. هذه المشكلات كلها تسبق ــ فى نظرى ــ مشكلات اللغة العربية كمهارة فردية يكتسبها المتعلم ، أو كتعبير ذاتى يبدعه الفنان ، مع أنى قد اجد نفسى ، بحكم استعدادي الشخصى ، منجذبا الى بحث هذا القسم الاخير اكثر من القسم الاول .

عينى العربية تنظر الى الواقع الماثل ، وتلاحظ المأزق الثقافى الذى تمر به اللغة العربية فى الوقت الحاضر ، وتستمد من الحصيلة غير الواعية لما ورد عليها من تراث هذه اللغة وهذه الثقافة ، وان كانت تعرف أن الكثير جدا من هذا الذى مر مبهم أو مختلط المعالم ، يحتاج الى جهود هائلة لتوضيحه وتحديده . أما عينى الغربية

« بالغين المعجمة » فتحاول أن تنظم حركتها بحيث تنسجم مع حركة العين العربية « بالمهملة » . فتنتقد وتنتقى ، وتذكر نفسها بأن كثيرا من المشكلات التي نعاني منها اليوم قد فرغ القوم من حلها قبل مائة سنة أو أكثر ، ومع أن هناك خصائص نوعية مهمة لهذه المشكلات عندنا وعندهم ، فاننا قد نتعلم من الطرق التي اتبعوها في حل مشكلاتهم ، ان لم تقتبس الحلول نفسها . ولكن عيني هذه حين تنظر الى المشكلات اللغوية التي يبحثونها في الوقت الحاضر ، والطرق التي يتبعونها في بحث هذه المشكلات ، تجد أننا لسنا بعيدين عنها أيضا ، بحكم أننا نعيش واياهم في عصر واحد .

كلمة على الهامش: هذه مشكلة كبيرة ومهمة، ولا تنحصر في قضية اللغة ، بل تشتمل على جميع جوانب الحياة في تطورها المشاهد. فلكي نستطيع أن توجه هذا التطور ولا تكون مجرد فرائس له ، يجب علينا أن نحقق شرطا مهما ، وهو انحياز جميع المراحل الضرورية ـ أو سد الفجوات السابقة ـ لكي نستطيع معايشة الواقع الحاضر وذلك ـ بالطبع ـ دون الالتزام بالحلول نفسها ، أو الالتزام بالمدة الزمنية نفسها .

لقد درس القوم التطور اللغوي والصراع اللغوي ـ معتمدين على النصوص المكتوبة والتي يرجع معظمها الى عصور سابقة ـ حين اهتموا بتصنيف اللغات كتصنيف البشر الى فصائل ، وتحديد الصفات القومية لشعوبهم ، والعلاقات بين هذه الشعوب ،على ضوء ذلك التصنيف . وصاحب ذلك ـ كما يمكن أن نتوقع ـ ابراز لفضائل اللغات الهندية الاوروبية يوازى تمجيدهم لخصائص

الاجناس الهندية الاوروبية . استمر ذلك طوال القـرن التاسع عشر ، ولا اقول انه انتهى او ترك . فقد أضيف الى التراث الفكرى الغربى ، او الى ذلك الجهاز الفكرى الموروث الذى يستشيره الرجل الغربى العادى بدون وعيه ، ولكن علماء اللغة عندهم ماعادوا يهتمون به ، فقد تجاوزوه بمرحلتين : اما المرحلة الاولى فهى مرحلة سوسير وتلاميذه فى اوروبا ، وبواس وبلومفيـلد وتلاميذهما فى الولايات المتحدة الامريكية ، وهـذه مرحلة حل فيها الاهتمام باللغة المتكلمة محل الاهتمـام باللغة المكتوبة ، ودراسة اللغة كجهاز متكامل محـل الاهتمام باجزاء هذا الجهاز ومصدر كل جزء ، والارتباط بمفاهيم علم الاجتماع والاقتباس من مناهجه وطـرقه محل الارتباط بالتاريخ الادبى والاقتباس من مناهجـه وطرقه . هذه مرحلة تجاوزت فيها الامم الغربية البحث عن اصولها الى تحسين حاضرها ، الذى بدا لها ــ رغم عيوبه ــ أحق بالاهتمام من كل ماض . ولكن علم اللغة الغربى ظل فى هذه المرحلة ، كما كان فى سـابقتها ، معنيا باللغة بوصفها نظاما اجتماعيا .. ومن أجـل ذلك قد أجد هذه المرحلة اقرب الى اهتمامى .

وأما المرحلة الثانية والاخيرة ــ مرحـلة فيرث وبالى وتلاميذهما الكثيرين ، وهى المرحلة التى لايزال يعيشـها علم اللغة الغربى الى اليوم ــ فقد اتجهت الى دراسـة الفروق التى يمكن أن تلاحظ داخل اللغة الواحدة ، الى جانب دراسة اللهجات ، التى لم تنقطع منذ بدايات علم اللغة ، ولكنها لم تجعل غرضا فى ذاتها الا فى هذه المرحلة الاخيرة ، وبدأت دراسة « علم الاسلوب » كفرع من فروع

علم اللغة ، قبل أن يسترده نقاد الادب مجهزا بعدد من المصطلحات اللغوية . ثم سك علماء اللغة مصطلحات جديدة أكثر ارتباطا بالاستعمالات العادية للغة ، ولكنها تنصب على الاشكال المختلفة للغة الواحدة أو اللهجة الواحدة ، مثل مصطلح « الشفرة » Code والمرجع Register و « اللهجة الشخصية » Ideoleet ولكل من هذه المصطلحات معناه الخاص عندهم ، الذى يختلف قليلا أو كثيرا عن معناه فى الكلام الجارى . وكان طبيعيا فى هذه المرحلة ان تتوثق علاقة علم اللغة بعلم الاجتماع وعلم النفس ، وان يقتبس من مناهجهما وطرقهما او على الاصح يتبنى الكثير منها ، وهكذا نما علم الاجتماع اللغوى وعلم النفس اللغوى .

لعلي — وقد بدأت هذه الكلمة بالحديث عن مشكلتى اللغوية الخاصة — الا أكون فى حاجة الى تأكيد ان هذه الصورة المعاصرة لعلم اللغة الغربى يجب ألا تغيب عن انظارنا ايضا ! هذه كلها مقدمات ، أو شروط ، لبحث المشكلة !! .

اللغة والتراث

بين يدى كتاب باللغة الانجليزية ترجمة عنوانه « المسلك اللغوى والتغير الاجتماعى ــ مشكلات التعدد اللغوى مع الاشارة الى شرق أفريقيا خاصة » .. والكتاب يضم مجموعة أبحاث قدمت ونوقشت فى الندوة الافريقية الدولية التاسعة التى عقدت فى الكلية الجامعية بدار السلام « عاصمة تنزانيا » فى ديسمبر سنة ١٩٦٨ م ، وتكفلت مؤسسة فورد بنفقاتها ، كما تكفلت بنفقات طبع الكتاب .

أما محرر الكتاب الذى كتب مقدمته جامعا فيها أطراف المشكلات المدروسة فى مختلف أبحاثه مع خلاصة مادار حولها من مناقشات فى الندوة ، فأستاذ فى مدرسة اللغات الشرقية والافريقية بجامعة لندن ، وهو الاستاذ و . هـ . هوأيتلى . ومعظم الابحاث ــ ومجموعها اثنان وعشرون بحثا ــ قدمها دارسون أوروبيون وأمريكيون ــ كما يبدو من أسمائهم ووظائفهم ــ والقليل منها لدارسين افريقيين .

هذه بيانات شكلية يمكن أن يستخلص القارىء منها بعض الدلالات ، ولكننى أرجو الا يسارع الى اتهام مشروع كهذا بسوء القصد ، فيرفضه بكل مافيه من غث وسمين على اعتبار أنه يخدم مصالح الاستعمار أو الاستعمار الجديد . فقد يكون هذا صحيحا ، دون أن

يكون المشروع منطويا على تضليل مقصود . انما الصحيح انه جرى في اطار من الثقافة الانجليزية بوجه خاص ، والثقافة الغربية بوجه عام ، فطبيعي ان ينظـــر الى المشكلات اللغوية الافريقية بمنظار الثقافة الغربية المعاصرة والثقافة الغربية المعاصرة ـ برغم كل ازماتها واوجاعها ـ ترى أنها قمة المدنية ، وان المسلك الطبيعي والمتوقع من كل شعب هو ان يحاول الاقتراب من هذه القمة أو الانطواء تحتها . ليس هذا هو رأى عامة الغربيين فحسب بل هو رأى انصار الثقافة الغربية من ابناء الشرق أو ابناء الجنوب ، وحتى الذين لا يقبلون الثقافة الغربيـة الا بتحفظ مضطرون الى الاعتراف بتفوقها من الناحية التكنولوجية على الاقل .

ومن حيث أن المشروع يتناول بحث مشكلات لغوية ، فهو ـ بوصف أكثر تحديدا ـ يمثل اهتمامات عـلم اللغة المعاصر عند الغربيين ، وقد انصرف هذا العلم عن اللغة المشتركة ـ وحتى اللهجـــة المشــتركة ـ الى « الاستعمالات الخاصة » للغة . فليس لنا أن نتوقع منه الا ماتجده فعلا : وفي مقدمة ذلك بحث مشــــكلات الازدواج اللغوى ، أو تعدد اللغات ، لدى الافــــراد والجماعات . ولهذه المشكلات جوانبها الســـياسية والاجتماعية والنفسية . ولها قبل ذلك جانبها الحضارى الذى يجمع بين مفهوم « الثقافة » بأوسع معانيهـــا ، ومفهوم « السياسة » بأوسع معانيها أيضا ، وهو المفهوم القومى . والدين جانب مهم لانه وثيق الصلة بالثقـافة والقومية معا ، فهو الاساس العميق للحضارة .

ولا اظننى اظلم الكتاب موضوع هذا الحديث حين

أقول انه يشتمل على قسمين متميزين من الابحاث : قسم يتناول مشكلات « التكيف اللغوى » حين تكون اللغة الام عند الفرد غير كافية لجميع متطلباته الاجتماعية وهنا يمكن أن تطرح مشكلات محددة مثل : المواطن — أو « المواقف » — التى يستعمل فيها الفرد اللغة الام ، والمواطن التى يستعمل فيها لغة أخرى مشتركة . تأثير البيئة الاجتماعية الخاصة فى مدى حرص الفرد على اكتساب لغة أجنبية . لماذا يخلط الفرد أحيانا بين لغته الاصلية واللغة المكتسبة حين يتحدث مع شخص آخر له مثل ظروفه اللغوية — هذا قسم تستخدم فيه طرق البحث المستعارة من علم الاجتماع وعلم النفس ، وهى طرق تجريبية ، تعتمد على القياس كما فى العلوم الدقيقة وتؤدى الى نتائج مهمة فى فهم السلوك اللغوى للافراد ، وهو يفيد معلمى اللغة فائدة مباشرة ، ويمكن للناقد الادبى أن ينتفع به فى تحليل النصوص . ولكنه لا يلقى ضوءاً مباشرا على المشكلة الحضارية ، التى هى بالنسبة الى أنا العربى المسلم ، مسالة حياة أو موت . ولذلك فانها تتناول مشكلات التكيف اللغوى فى المجتمعات الافريقية بنفس الطريقة التى تتناول بها المشكلات ذاتها فى الاقطار المتقدمة ، فسواء أن يكون البحث عن أهل المكسيك او بورتوريكو المهاجرين الى الولايات المتحدة أو طلاب المدارس الكنديين ذوى الاصل الفرنسى الذين يتعلمون الانجليزية ، أو طبقة أصحاب المهن « الراقية » فى الكاميرون الذين يحرصون — دينيا وثقافيا وعمليا — على الانتماء الى الثقافة الغربية ولذلك تصبح اللغة الفرنسية أو الانجليزية هى اللغة الغالبة فى بيوتهم

والمعتمدة فى تعليم أبنائهم وان تسللت اليهم أصداء من اللغة الام على يدى تابع أو قريب فقير .

ففى جميع هذه الحالات على السواء تعتبر المسألة الاساسية ، وهى اختيار اللغة المستعملة ، غير مطروحة اصلا ، وانما هناك المشكلات النفسية والاجتماعية المترتبة على استعمال لغة غير اللغة الام : الموقف النفسى من أصحاب اللغة الاخرى باعتبارهم مجموعة بشرية مختلفة، العوامل البيئية التى تشجع على اكتساب هذه اللغة ، المجالات التى يحدث فيها التنقل بين اللغتين ، الخ .

أما القسم الثانى من ابحاث الكتاب فهو ذلك الذى يتناول قضية الاختيار اللغوى ذاتها . وفيه بحثان مهمان : الاول لاستاذ فى جامعة يهودية فى نيويورك ، وقد صدر به الكتاب ، وكانت المقدمة فى معظمها تعليقا عليه ، والبحث الثانى لاستاذ أفريقى مسلم من جامعة كمبالا . ولاشك أن كلا البحثين يستحق وقفة متأنية بقدر مايسمح به المقام .

ولاشك أيضا أن اهتمامنا بالبحث الاول والمناقشة التى دارت حوله فى المقدمة سوف يتضاعف حين نلاحظ انهما لا يتناولان مسألة « الاختيار اللغوى على نطاق الامة » فى البلدان الافريقية وحدها ، بل يعممان البحث اكثر من هذا بحيث ينطبق على جميع بلدان العالم الثالث ، ويدخلان الهند والصين وتركيا فى أمثلتهما واستنتاجاتهما ، ولا يبخل صاحب البحث على تونس باشارة عارضة يقول فيها مانصه : « ولعل فريقا من المثقفين يخططون لاحلال اللغة العربية محل الفرنسية فى تونس » . وقد وردت هذه الجملة بين قوسين ، ضمن

هامش طويل تحدث فيه عن الخطط « النظرية » لفرض « لغة قومية قديمة ، فى حين أن « السكان » قد تم دمجهم بالفعل فى لغة عالمية وثقافة عالمية ، هما لغة المستعمر السابق وثقافته !

« كلمة على الهامش : حدثتك من قبل أنى شخصيا أشعر بالدوار حين أجدنى أفكر مرة بطريقة عربية ومرة بطريقة غربية ــ وهل يمكننى أن أصنع غير هذا حين أقرأ لمؤلف غربى ؟ أعتقد انى يجب ان اخصص مقالا لهذا الموضوع . ولكنني ارجوك الان ان تترك راسك يدور قليلا مع هذا الكاتب الوقح . انه يشير الى تونس اشارة عابرة ، بين قوسين ، فى نصف سطر من هامش أصل الهامش عن الجمهورية الايرلندية ومحاولتها العدول عن اللغة الانجليزية الى لغتها القومية القديمة وجعلها لغة رسمية . وكأنما حضره مثل تونس كمثال نموذجي لا لبس فيه ! اننا ، نحن العرب ، لا نستعمل مثل هذا الاسلوب الا فى الشعر ، ونسميه التشبيه المقلوب . اما هذا وامثاله فانهم يدسونه فى كتاباتهم العلمية ، كطريقة من طرق التدليس » .

البحث ومناقشاته يدوران حول القرارات السياسية التى تتخذها الدول حديثة الاستقلال بشأن الاستمرار فى استخدام لغة المستعمر القديم كلغة أساسية فى التعليم والادارة والقضاء والمعاملات . ويحاول البحث تقسيم هذه الدول الى فئات طبقا لمدى شعورها بوجود « تراث عظيم » يعبر عن شخصيتها القومية ، ولا تعترف المقدمة بمثل هذا التقسيم ، فليست هناك حدود فاصلة ولا تكاد توجد دولة تفتقر افتقاراً تاما الى تراث . كما

ينظر كاتب المقدمة بكثير من الشك الى القــرارات التى تتخذ بشأن المسألة اللغوية ، فهذه القرارات تتأثر بعوامل سياسية واقتصادية أكثر من العامل اللغوى ، والدول صاحبة الشأن تضع العراقيل امام الباحث الذى يريد الوصول اليها . ولذلك يضع كاتب المقدمة معيارا آخر للتغيرات اللغوية ، يتألف من اتجاهين متناظرين ومتناقضين احيانا ، تتأثر بهما القرارات التى تتخذ من قبــــل الصفوة الحاكمة فى المسألة اللغــوية : الاتجــاه الى الحداثة والاتجاه الى الاصالة ، والميل الى أحدهما او محاولة التوفيق بينهما هو مفتاح تلك القرارات .

ولا يشير كاتب المقدمة بكلمة واحدة الى البحث الثاني، وموضوعه : « الاسلام واللغة الانجليزية فى شرق أفريقيا وغربها » . ولعلى لا أسيء الظن بكاتب المقدمة ، أكثر مما ينبغى ، حين أقول انه هون من أهمية « الشـعور بتراث عظيم » لان هذا التراث يتمثل لدى القسم الاكبر من الافريقيين فى القرآن العظيم والثقافة العربيـة ، كما أظهر كاتب هذا البحث ، وتبقى مشــكلات كثيـرة تتفرع عن هذه القضية الكبيرة ، مشكلات يتعلق بعضها باللغة وبعضها بالحضارة ، وبعضها بالماضى البعيد أو القريب وبعضها بالحاضر والمستقبل ، ويجب أن ينتدب لها علماء اللغة العرب والافريقيون . ولدينا منهم فى هذا البلد الكريم عالمان عظيمان ، يعملان فى جامعة أم القرى ولكليهما تجربة خصبة فى قلب القارة الافريقية ، وهما الدكتور خليل عساكر والدكتور تمام حسان . فهـل يسمعان ؟

لغة التكنولوجيا بدون ألم !!

فى عالمنا العربى مشكلات تثور بين الحين والحين ، كأوجاع المرض المزمن ، ثم تسكن ، لم يعرف أحد بين سكونها وثورتها لم ثارت أو كيف سكنت ، لم يفحص أحد المريض ألفحص الذى تعرف به العلة ، ولم يلتمس أحد العلاج الذى يستأصل الداء . وربما حسب بعض الناس انى أشير الى مشكلاتنا المستعصية ، فى علاقة العرب بعضهم ببعض ، أو علاقتهم بغيرهم من أمم العالم هذه أمور لها أربابها ، ولست بحمد الله منهم . انما اتحدث عن أمور الثقافة التى يمكن ان أبدى فيها ملاحظة وجيهة ، أو أشير بعمل نافع . والثقافة العربية تعنى – ببساطة – اعداد الفرد العربى للحياة ، فما أجدرها أن يعنى بها الكبير والصغير لعلنا نصل فيها الى حلول معقولة ، بدلا من أن نظل نضرب رءوسنا فى مشكلات تعجز عن حلها ، فلا نرجع من مناطحتها بغير الهم والغم ، ولا ننتقل من الصراخ الا الى العويل .

فمن المشكلات الثقافية التى أثيرت فى الاسابيع الاخيرة على الصفحات الداخلية لبعض صحفنا الكبرى، وانقسم حولها الكاتبون فريقين ، وتبودلت حجج سبق أن قيلت بدل المرة مائة مرة ، قضية تعريب التعليم الفنى أو تعريب لغة التكنولوجيا ، من طب وهندسة ونحوهما . المطالبون بالتعريب يستشهدون بأمجاد

العرب العلمية فى عصرهم الذهبى ، ويلاحظون أن التعريب ممكن بل ميسور بامكاناتهم الحاضرة . والمدافعون عن الوضع الحاضر « تدريس العلوم الحديثة بلغة أوربية » يخوفوننا من انقطاع صلاتنا بالمراكز العلمية المتقدمة فى أوربا وامريكا ، وينافسون الفريق الاول فى ارضاء شعورنا القومى بالاشارة الى مساهمتنا الملحوظة فى المؤتمرات العلمية العالمية .

منذ كم سنة ، أو كم من عشرات السنين ونحن نبدىء ونعيد فى مثل هذا الحديث ؟ والغريب أن النقاش يدور فى مصر ، بينما انتهى المجمع اللغوى القاهرى من الاحتفال بعيده الخمسينى . وقد كان من أهم اغراض المجمع اللغوى عند انشائه تعريب المصطلحات العلمية ، وثابر على هذه المهمة سنين طويلة ، كانت حصيلتها ثلاثة مجلدات ضخمة ، وكانت العلوم الطبية بالذات من أوفر العلوم حظا من اهتمام المجمع ، ومع ذلك بقى الطب يدرس فى جميع كليات الطب فى مصر باللغة الانجليزية ، حتى ليتساءل المرء : فيم كان هذا المجهود الضخم الذى بذله أطباء ولغويون من اعضاء المجمع وخبرائه ، اذا بقى حبيسا فى معاجم خاصة لا ينتفع بها فى تأليف أو تعليم ؟ أن هذا المسلك المتناقض — على المستوى العام — قد يدعو الى الحيرة او الى السخط ، ولكن الاولى أن يدعونا الى البحث عن وظيفة المجمع اللغوى وطريقة عمله ، لكى نتبين الاسباب الواقعية لضعف فاعلية قراراته . وهذه مشكلة قائمة برأسها .

فلنعد الى الخلاف القائم « برغم وجود المجمع » حول تعريب العلوم الحديثة . لنفرض أن انسانا قدم من

المريخ فوجد رجال العلم عندنا يتناقشون حول هـذه المسألة . لاشك أنه سيصاب بالذهول عندما يتبين له أن المدافعين عن الوضع القائم انما يدافعون عن تدريس هذه العلوم بلغة أجنبية ، وان المطالبين بالتغيير انما يطالبون بتدريسها بلغة البلاد ! ولا أدرى هل يقتنع أو لا يقتنع عندما نشرح له هذا الوضع المعكوس بأننا قوم متخلفون ، واننا لم نعرف هذه العلوم الحديثة الا منذ مائة وثمانين سنة فقط ، ولذلك فنحن نتعامها كما تلقيناها من أهلها ، أى « كما انزلت » . واذا لم يقتنع انسان المريخ بهذه الحجة الواضحة فسنقول له اننا نذهب الى المؤتمرات العلمية العالمية ونجلس كتفا لكتف بجانب أرباب هذه الشئون ، ونعتلى المنابر ونلقى الابحاث فيصفقون لنا . وأخشى أن يسألنا عندئذ : هل تذهبون انتم كلكم الى هذه المؤتمرات ؟ فان كان هذا صحيحا فلماذا لا تعقدون هذه المؤتمرات فى بلادكم وتتحادثون فيما بينكم بلغتكم ، واذا شئتم ان تكونوا كرماء لضيوفكم فاسمحوا لهم أن يحدثوكم باللغة التى يحسنونها ، وعندكم ـ ولاشك ـ من المترجمين من ينقل لكم معانى كلامهم ، فلا يفوتكم شيء مهم ، بل يكونون هم الخاسرين لانكم اصبحتم انتم الاصل وهم الفرع ؟ اما أن كان الحال غير ذلك ، فلا كل حكمائكم يشاركون فى المؤتمرات ، ولاجل أعضاء المؤتمرات من حكمائكم ، فماذا يمنع المبرزين من علمائكم أن يتقنوا بدل اللغة الواحدة لغتين أو ثلاثا ؟ فهذا أمر عادى جدا عندنا فى المريخ ، وليس بمقصور على أصحاب الطب او الهندسة او العلوم الدقيقة ، او المتخصصين فى اللغات ، بل ان

من المشتغلين بالادب عندنا من يحسن لغتين أو ثلاثا من لغات المريخ .

واخشى أن يسقط — عندئذ — فى أيدى علمائنـــا الافاضل . ولذلك فاننى التمس — بكل تواضع — أن أعينهم بحجة لم تكن لتخطر على بال احد ، ولكنها حجة دامغة بالفة ، لاننى استقيتها من كتاب الفه نفر من الفرنجة المتخصصين فى علوم اللغة . ولعلكم — سادتى القراء — توافقوننى على الا نبخل على اخواننا فى الجنس والدين واللغة والحضارة بهذا القليل الذى وفقنا الله اليه من علوم اهل الغرب . فأنتم شركائى ، وقد حدثتكم من قبل عن هذا الكتاب الذى يتناول مشكلات التعدد اللغـوى لدى الشعوب المتخلفة ، ولا سيما الشعوب الافريقية ، ولكن لم يسبق أن تعرضنا لاحد الابحاث المهمة فى هذا الكتاب ، وهو البحث الذى أقدم زبدته الان .

عنوان البحث : « الشفرات المحدودة فى علم الاجتماع اللغوى ، واجتماعيات التعليم » . و « الشفرة » مصطلح فى علم اللغة الحديث ، يقرب معناه مما نســـميه « العرف اللغوى » ، فهو ينصب على اي نوع خاص من الاستعمال يرتبط بوظيفة معينة أو مستوى اجتمـاعى معين أو نحو ذلك . و « الشفرة المحدودة » اصـطلاح وضعه أحد اللغويين الانجليز ليدل على طريقة فى استعمال اللغة تتسم بالتعبير عن المطالب او الرغبات ، فى حدود الاعمال اليومية العادية وبين الافراد ذوى العـــلاقة الحميمة فى مجال الاسرة أو العمـــل . وتقابلها فى اصطلاح ذلك العالم « برنشتاين » : « الشـــفرة المجودة » وهى تتميز بالاتجاه الى الواقع ، وتستخدم

فى مجال الاشخاص ذوى العلاقات الاجتماعية الاوسع مدى . وكلتا الشفرتين تتجه اما الى الاشخاص واما الى الاشياء . وواضح أن التعليم يعتمد الى حد كبير على الشفرات المجودة ، دون الشفرات المحدودة ،وواضح كذلك ان لكل من النوعين ارتباطا وثيقا بطبيعة العمل الذى يزاوله الشخص ، ومستوى علاقاته الاجتماعية ومداها . ومن هنا تصبح غلبة احدهما على الاستعمال فى نطاق الاسرة مرتبطة بوضعها الاجتماعى . ويكون لهذا العامل تأثير كبير فى تحصيل تلاميذ المدارس .

هذا هو أصل النظرية العلمية ، التى يقرر كاتب البحث أن هناك ادلة كافية تؤكد صدقها على المجتمعات الانسانية بصورة عامة ، لا على المجتمع الذى نبعت منه فحسب . ويعترف الباحث بأنها لا تعطى صورة مشرقة عن عالمنا الذى يلهج بالديموقراطية وتكافؤ الفرص .. « منذ أكثر من عشرين سنة . اثار باحث اجتماعى آخر ضجة فى الغرب عندما تحدث عن انقسام آخر فى الثقافة الغربية المعاصرة ، وهو انقسامها الى ثقافة لفظية او أدبية واخرى علمية أو تكنولوجية » . ولكن الحقائق هى الحقائق ، وليس من شأن العلم أن يحتج على أوضاع قائمة ، أو يطالب بتغييرها . كل مايستطيعه هو أن يقدم الحلول الممكنة لبعض المشكلات الناشئة عن هذه الاوضاع وأن يحذر كذلك من الاندفاع وراء الافكار المثالية التى تضاعف من خطورة المشكلات . اننا حين ننقل أبناء العمال غير المهرة من جو « الشفرات المحدودة » التى تعنى علاقات اجتماعية مستقرة راضية قانعة ـ هكذا يقول الكاتب ـ الى جو « الشفرات المجودة » ، سواء فى العلوم

النظرية أو الطبيعية ، نحرمهم من مزايا هذا الاستقرار ونلقيهم فى خضم من الاضطراب النفسى والاجتماعى ، وخصوصا اذا وجه معظمهم الى التعليم النظرى لانه أقل تكلفة ، وان كانت فرص اصحابه فى العمل اقل .

وهنا يكتشف الباحث أن الشعوب المتخلفة أسعد حظا من الشعوب الصناعية المتقدمة ! وذلك ـ بالطبع ـ بشرط أن توجه مواردها المحدودة نحـــو التعليم التكنولوجى وتتجنب اغراء التوسع فى التعليم النظرى العالى الذى يستوعب أعدادا أكبر بتكاليف أقل . أما الحظ السعيد الذى تنعم به الشعوب المتخلفة فهو انها تستطيع جعـل التعليم التكنولوجى بلغة أجنبية ، لان ذلك يضمن بقـاء الشفرتين مستقلتين ، فلا يتسرب شىء من « الشـفرة المجودة النظرية » الى « الشفرة المجودة التكنولوجية » وبهذا ينعم المجتمع بالاستقرار المنشود ، ويمكنه أن ينتقل الى مرحلة المدنية الصناعية بدون الم !

شعوب من العمال المهرة وانصاف المهرة ، بلا وعى اجتماعى أو أخلاقى بقيمة عملهم . وهذه هى صورة المدنية الصناعية التى تناسبنا . قد لا يرضيك ذلك أيهـــا القارىء ، ولكنك توافقنى ، ولاشك ، على أنها صـورة اكثر واقعية من صورة المؤتمرات العلمية العالمية التى يحتشد فيها علماؤنا العرب (؟) .

بين المجمع اللغوى
وبـــيت الحكـــمة

كنت ادير فى راسى هذا العنوان عندما قرات مقال الاستاذ ابو زيان السعدى « بيت الحكمة » فى « الرياض الاسبوعى » « ٩ جمادى الاولى ١٤٠٤ هـ » فغبطته على تفاؤله . انك يا اخى تزف الينا خبر انشاء « أو بعث ؟» « المجلس العلمى للمؤسسة الوطنية للترجمة وتحقيق التراث » فى تونس . وتنبئنا بأن من أغراض المؤســـسة الى جانب هذين الغرضين الجليلين اللذين نص عليهمـــا اسمها : « الاشراف على اظهار الدراسات الجادة فى العلوم الانسانية ، وتوجيه الباحثين الى موضوعات معينة لم تطرق بعد ، تاريخية كانت أو حضارية او أدبية . » ورجوت يا أخى أن يلتقى هذا العمل المتنوع مع مثيله فى سائر الاقطار العربية الشقيقة .. اما أنا فلا أدرى ماذا أصابنى حتى أصبحت أنظر الى الاشياء بصـــورة مقلوبة .. لقد بشرنى عنوانك بشىء غير ما قراته فى مقالك ، بشرني « ببيت الحكمة » فاذا أنا أمام مؤسسة حكومية جديدة لا ترمى الى تحقيق غرض معين فى مجال الثقافة ، فهى تقوم على رعاية كل الاغراض المعروفة من تاليف وترجمة وتحقيق ، وأذا كان لها اتجاه معين فهو الاتجاه الى العلوم الانسانية .. والعلوم الانسانية تعنى لدى الحكومات خدمة الايديولوجيات المعينة التى تتبناها فى أوقات معينة .. اعذرنى يا اخى فان لى تجارب مرة مع هذا النوع من المؤسسات فى وطنى الاصـــغر

« مصر » منذ قيام الثورة وانشاء المجلس الاعلى للاداب والفنون ، الذى أضيفت « العلوم الاجتماعية » الى اسمه بعد حين .. بل ان هذه التجربة تمتد الى ماقبل الثورة الى مشروع « الالف كتاب » فى وزارة التعليم المصرية .. ولست أتهم أحدا من القائمين على هذه المشروعات، فى الماضى أو الحاضر ، أو على مثيلاتها فى اى قطر عربى آخر غير مصر . كثير منهم زملاء وأصدقاء ، أعلم علم اليقين انهم صادقو النية فى خدمة الثقافة العربية .. ولكن المطلوب لخدمة الثقافة العربية أو اى شىء عربى آخر ليس صدق النية بل صدق النظرة وصدق العزيمة، والعبرة بالنتائج : أعظم عملين ، فى باب العلوم الانسانية والدراسات الحضارية .. الخ ، كتبا خلال العشرين سنة الاخيرة هما كتابان لرجلين يعيش أحدهما فى الرباط « نجيب البهبيتى ــ المعلقة العربية الاولى » ويعيش الاخر فى القاهرة « جمال حمدان ــ شخصية مصر »، لكليهما قصة ، ويكفى أن أقول ان كليهما شهيد من شــــهداء التنظيمات الحكومية الثقافية ، اما المهم فهو أنهما لم يستطيعا أن ينتجا هذين العملين الجليلين الا لانهما عاشا عيشة الرهبان اكثر من عشرين سنة ، بعيدين عــن جلسات اللجان ، ومطالب « الخطة »،هذا بينما نجحت المؤسسات الثقافية الحكومية فى تحويل القســم الاكبر من المثقفين الى موظفين ، بدون أنضــباط الموظفين ، ونجحت فى أصدار المئات من الكتب والنشرات والمجلات التى تمتلىء بأعمال غثة ، متعجلة ، هدفها الاول الارتزاق والاخير شهرة موهومة . واقع الحــال فى المؤســسات الثقافية الرسمية ــ ودعونا من المجاملات ــ انها أمكنة يتحكم فيها الاداريون ، وتختنق المواهب ، وتجاهد قلة

يائسة من المثقفين الحقيقيين لانقاذ مايمكن انقاذه ، لان هذه المؤسسات ، بفضل ماتتمتع به من الدعم الحكومى تكاد تجعل من المستحيل قيام اى مجهود ثقافى مستقل.

ومن المحقق أن نهضة الثقافة فى أوطاننا العربيــة ، كنهضة التعليم فيها ، لا يمكن ان تتم بغير دعم قوى من الحكومات . ومرة اخرى لا أتهم من يتبنون المشروعات الثقافية الحكومية بسوء النية . ولكننى أتهم كل مشروع حضارى عندنا ، صغيرا كان ام كبيرا « ومعنى ذلك انه اتهام قائم على راس كل فرد منا » بالانقياد الى وهم قاتل : مبعثه الكسل العقلى وضعف الثقة بالنفس . فلهذا نميل الى تقليد الغربيين فى كل شىء ، نحسب أن لديهم الحلول الجاهزة لمشكلاتنا ، مع أن أوضـــاعنا الخارجية ليست كأوضاعهم ، كما أن انماطنا السلوكية ليست كانماطهم . وهكذا نبقى النظم الغربية المستعارة واجهات فقط ويمضى تطورنا الحقيقى الاصيل « لا أقول انه يتوقف ! » وكانما يتم بمحض الغريزة ، بدون تدبير واضح ، او تخطيط محكم . وقد رأينا بلادا من الكتلة الشرقية تقيم مؤسسات حكومية للنشر ، ورأينا بلادا من الكتلة الغربية تنشىء مجالس للثقافة ، فضممنا هذا الى هذا ، دون أن نسأل انفسنا هل نحتاج الى هذا أو هذا ، او الى شىء آخر غير هذا وهذا .

وقد كان الموضوع الذى ادرته فى رأسى ، قبل ان اقرأ مقال الاستاذ ابو زيان السعدى ، مقارنة بين نمط من التنظيمات الثقافية ، استعرناه من الغرب أيضا قبل هذه المؤسسات والمجالس ، ونمط آخر عرفته حضارتنا فى طور النهضة الحقيقية التى انبثقت بظهور الاسلام ، والتى نرجو أن تبدأ دورة جديدة فى عصرنا الحاضر ،

فقد لا نشبه أسلافنا العظام هؤلاء فى شىء الا اننا نملك الايمان ونفتقر الى وسائل الحضارة المادية ، ولكن هذا ربما كان كافيا لمواصلة المسيرة من حيث توقفوا .

واعنى بالنمط الاول المجامع اللغوية ، وبالنمط الثانى بيوت الحكمة .

وربما كان تبنى فكرة المجامع اللغوية ، منذ اكثر من خمسين سنة ، عملا له مايبرره ، ولكن دون أن نعلق عليها آلامال الكبار التى علقت عليها فى وقت من الاوقات فالمجامع اللغوية هى ـ ببساطة تامة ـ مجالس من شيوخ الادب واللغة ، تقوم على حراسة التراث وتضمن استمراريته . وقد نشأت فى الغرب ، كما نشأت عندنا . بصورة تلقائية . اذ أن من عادة هؤلاء الشيوخ فى كل زمان ومكان أن يلتقوا ويتباحثوا فى هذه المسائل ، ثم أخذت الدولة ـ عندهم وعندنا ـ تسبغ رعايتها على هؤلاء الشيوخ ، ادراكا منها لقيمة استمرارية التراث فى ثبات الدولة ، فجعلت منهم هيئة رسمية . هذا هو الاصل المشترك ، ولكن تبقى بعد ذلك فروق مهمة بيننا وبينهم ، فنموذج « المجمع اللغوى الفرنسى » وهو النموذج الذى احتذته معظم الدول الغربية ثم احتذيناه بعدها ، كان نموذجا مناسبا لظروف القرن السابع عشر فى فرنسا ، فقد أنشىء حين كانت اللغة الفرنسية والادب الفرنسي قد اكتمل نموهما ولما يكد ، فتطلب الحال قيام هيئة ترعى التراث الناشىء ، وتضمن ارتفاعه الى مستوى الاداب القديمة ، اليونانية واللاتينية وهكذا كانت المهمة الاساسية للمجمع الفرنسي هى مراقبة مايجد فى حقل الاستعمال اللغوى أو الابداع الادبى

وتزكية مايراه صالحا منهما لان ينضاف ألى التراث .
وتوج هذا العمل بالمعجم المشهور الذى استغرق تاليفه زهاء ستين سنة ..

واذا عرفت أن هذا المعجم كان أول معجم للغة الفرنسية « هذا هو مبلغ علمي حول هذا الموضوع » ادركت البون الشاسع بين أوضاعنا وأوضاعهم ... فلدينا من المعاجم العربية ثروة هائلة ، وانما الذى نحتاجه الوف من الكلمات الجديدة ، والوف من المعانى والافكار الجديدة فى الثقافة والعلم . بعبارة أخرى نحتاج الى أن نغطى فى بضع عشرات من السنين ، أو بضع سنوات ان أمكن مساحات شاسعة قطعتها اللغات الاوروبية والثقافة الاوروبية والعلم الاوروبى فى بضع مئات من السنين . فهل يصلح نموذج المجمع اللغوى لهذه المهمة ؟

لقد رايتهم ، هؤلاء الاشياخ الاجلاء فى المجمع اللغوى بالقاهرة ، عاكفين على ترجمة المصطلحات الفرنسية والانجليزية ، فى القانون والطب والكيمياء ، ياتيهم بها خبراء من المختصين فى هذه العلوم ، وربما وضعوا لها تعريفات وربما اكتفوا بتعريفاتها فى المراجع الاجنبية ، ولكنهم لم يعربوا من هذه العلوم الا ماكان معربا فعلا قبلهم . وبقى أساتذة الطب مثلا يعاونون فى تعريب المصطلحات فى المجمع ، ويخرجون ليدرسوا لتلاميذهم الطب باللغة الانجليزية ..

اما كان الاليق بنا والاجدى علينا أن نحتذى نموذج « بيت الحكمة » الذى أنشاه المأمون فى بغداد ، وجلب اليه كل ماعرفه العالم المتحضر آنذاك من كنوز الثقافة اليونانية ، ليحولها المترجمون الى تراث عربى ..؟

لنحذر هؤلاء الباعة

لا شك ان الزائر الذى يجيئنا من المريخ يصاب بالذهول عندما نقول له بفخر أن لغتنا العربية هي افصح لغات الارض ، وانها غير عاجزة عن اداء ادق المعانى العلمية . فهكذا يقول شاعرنا حافظ ابراهيم فى قصيدة نحفظها لابنائنا فى المدارس الثانوية ، ولكننا نفضل — بمحض اختيارنا — أن يدرسوا العلوم والتكنولوجيا بلغة أجنبية حين ينتقلون الى التعليم العالى . وبما أن الزائر سوف يستصغر عقولنا حين نقول له أن سرهذا التفضيل راجع الى أن المؤتمرات العلمية العالمية لا تستغنى عن جهودنا ، ولذلك فهى تصر على أن نقدم اليها ابحاثنا باللغة الانجليزية او الفرنسية ، كما أننا من جهة اخرى لا نستغنى عن التصفيق الذى نسمعه بام آذاننا من أولئك السادة النجب حين نلقى أبحاثنا فى محفلهم الكريم — بما أنه لن يقبل منا هذه الحجة فسوف نضطر الى مصارحته باننا ندرس هذه العلوم باللغات الاجنبية لانها لم تترجم الى العربية ، كما انها — فى الوقت نفسه — لم تترجم الى العربية لاننا مازلنا ندرسها باللغات الاجنبية .

ولا ادرى ماذا يمكن أن يقوله عنا — عندئذ — ذلك الزائر القادم من المريخ ، ولكننى ارجو الا يخبره احد باننا كنا قد بدانا فعلا فى ترجمة هذه العلوم منذ اكثر من قرن ونصف قرن ، ثم جاء الاستعمار فاقنعنا

بتركها في المخازن ليأكلها التراب، والإعتراف مباشرة من النبع الصافي الذي يتدفق في اباره المتقدمة ، كما اخشى ان ينزل الي الاسواق فيرى أجهزة الكومبيوتر تبـــاع وتشتري من كل المقاسات ، من لعب الاطفال التي تباع على الارصفة الي الاجهزة الكبيرة التي تســـتوردها التوكيلات التجارية الرئيسية لنستخدمها في تســجيل درجات الامتحانات واعداد كشوف المرتبات والمعاشات، أخشى أن يرى هذا كله فيقول لنا : الا تعلمون ان اكثر بلاد العالم تقدما في انتاج هذه الالات الغريبة العجيبــة دولة شرقية مثلكم ، كان حالها ـ قبل مائة وخمسين سنة ـ من حالكم ، ولكنها لم تتهيب أن تنقل الى لغتها ـ الشديدة الصعوبة ـ علوم الغرب حتى تفوقت فيهـا على الغرب نفسه ، فالكتب التي تنشر بها اليـوم في الانفورماتيك ـ هذا العلم الحديث الذي يدرس وسائل تخزين المعلومات واسترجاعها ، ويشمل انتاج هـــذه الالات التي تسـهل لكم أعمالكم ويلعب بها أطفالكم ـ اكثر مما ينشر في اية لغة اخرى من لغات العالم ؟

تعال بربك نهـرب من ذلك الزائر المريخي فاني أعلم أن سؤاله التالي لابد أن يكون : متى تظنون أنكم سوف تكونون قادرين على صنع مثل هذه الالات الجديدة بدلا من استيرادها ؟ ام تراكم لا تفكرون في ذلك ولا تصـل آمالكم اليه ؟ تعال نبدأ المشكلة من أولها فالامر جـد ، واذا لم تكن بداية الحل صحيحة ـ كما عرفنا في حسابنا الابتدائي ـ فسوف نتخبط ونقـــع في حيص بيص والبداية الصحيحة لايمكن الا أن تكون تأصيل العلم في بلادنا ، والتاصيل له جانبان لايمكن أن يستقل أحدهما

عن الاخر : ان تقوم فى بلادنا مراكز للعلوم المتقدمة ، وان تكون لغتنا المستخدمة في العلم هى لغتنا القومية .
اما عن الجانب الاول فلاشك ان هناك اشخاصا كثيرين غيرى هم اقدر منى على معرفة امكاناته وصعوباته . ولكن الامر الذى يعرفه الخاص والعام ـ كما يقال ـ هو ان من علماء العرب والمسلمين المنتشرين فى أرجاء العالم اليوم من يمكن أن تقوم على جهودهم مثل هذه المراكز . واما عن الجانب الثانى فقد تواتينى الجراة للقول بأن مثـل هذه المراكز تحتاج الى جهود اعداد من الفنيين مـن مستويات مختلفة ، فلابد من توحيد لغة التفاهم بينهم ، واذا اخترت لغة أجنبية لهذا الغرض وضعت عقبة لا لزوم لها أمام الفنيين المتوسطين . هذا مع انك تطالب الجميع ـ على اختلاف مستوياتهم ـ بأن يحسنوا لغـة اجنبية قبل أن يحسنوا العلم الذى يريدون الاشتغال به . وهذا وضع عجيب يذكرنى بقول من قال فى معـرض انتقاد طريقة الكتابة العربية : ان الناس ـ اى الاوروبيين ـ يقرأون ليفهموا ، أما نحن فنفهم لنقرأ . وما أحسب الا أن الذين يصرون على استعمال اللغات الأوروبية فى تدريس العلوم هم أبناء أولئك أو حفدتهم ، فما بالهم لا يكتفون باجبارنا على أن نفهم لنقرأ ، حتى يلزمونا بأن نتعلم لغة غريبة لكى نقرأ ونفهم !

فاذا انيست هذه المراكز بما فيها من مختبرات واجهزة علمية لا علم لى بها « ولكنى اقرأ واسمع أن لدينا الكثير منها ، موزعة بين مختلف الجهات ، ومعظمها لا ينتفـع به كما ينبغي » فسنأتى مرة أخرى الى قضية اللغة . فالقسم الاكبر من الابحاث التى يقوم بها العلماء فرادى

أو مشتركين ، فى مختلف أنحاء العالم ، تنشر فى كتب أو كراسات او مجلات علمية ، ولابد لنا من جمع هذه المواد العلمية وترجمتها الى لغتنا ، كما فعل أسلافنا حين أقاموا « بيوت الحكمة » لترجمة تراث اليونان العلمي . نعم ان قسما غير هين — بل لعله القسم الاعظم خطرا — من هذه الابحاث يظل حجرا محجورا ، لانه يعد من الاسرار الاستراتيجية ، فلا يمكن الوصول اليه الا بالسرقة ، ولكن أين نحن من ذلك ؟ بحسبنا الان ان نلزم حدود الشرعية فى نقل العلوم والتكنولوجيا . فسيبقى لدينا كم هائل من المراجع الاصلية المعتمدة ، والابحاث المستجدة ، يتحتم علينا نقله الى لغتنا .

لقد اصبح تخزين المعلومات واسترجاعها عملية فنية دقيقة ، لها أدواتها والمختصون فيها . ومن هذه المعلومات ما يتعلق بعناوين الابحاث نفسها ، وأماكن نشرها ، واظن ان هذا كله لم يعد غريبا علينا ، وقد أصبحت بعض المكتبات فى بلادنا تستعمله . انما الامر الذى ينقصنا ، وهو البداية الصحيحة لتقدمنا العلمى كما قلت ، هو ان تكون هذه المراجع والدراسات والابحاث بين يدى الدارس بلغته العربية ..

كيف يمكن ذلك ، مع هذه الوفرة الهائلة فى الكتابات العلمية ؟

لنعد الى تلك الاجهزة الالكترونية التى دخلت الى شتى جوانب حياتنا ، من الحاسب الالى فى معظم المصالح والادارات الى اللعب الصغيرة فى أيدى أطفالنا : لماذا لا نفكر فى عقل الكترونى اكبر ، وهو العقل المترجم ؟

لقد كنت فى الولايات المتحـــدة الامريكية بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، فى تلك الفترة أرسل الروس القمـــر الصناعى الاول الى الفضاء ، وكانت لهذا الخبر هــزة غير سارة فى جميع الاوساط الامريكية ، ونشرت الصحف مقالات مطولة عن نظام التعليم فى الاتحاد السوفيتى وكيف أنه يساعد على تنمية مواهب الطلاب العلميـــة . وفى تلك الفترة نفسها كان التفكير فى صنع مترجم الى قد بدأ فى معهد ماساشوستس للتكنولوجيا فى مدينـــة بوسطن ، فقوى الدافع الى انجاح المشروع ان قلة نادرة من العلماء الامريكيين كانوا يستطيعون الاطلاع على ابحاث نظرائهم الروس . وقد قرأت بعد ذلك أن هذا « المترجم » تم صنعه بالفعل .

ميزة هذا المترجم لا تقتصر على أنه يوفر على مئـــات العلماء أو ألوفهم الوقت الذى يمـــكن أن يضيعوه فى اتقان لغة غريبة عليهم كاللغة الروسية ، بل انه أيضـــا يستطيع انجاز الاعمال المطلوبة منه فى وقت لا يمـــكن تصوره اذا قيس بالقدرة البشرية . ومعنى ذلك أنه لا يفيد العالم الذى يجهل اللغة الاجنبية فقط بل يوفر الكثير من وقت العالم الذى يعرفها أيضا .

يضاف الى هاتين الميزتين ميزة ثالثة قد تكون اهم لنا نحن العرب خاصة ، وهى أنه يوحد المصطلحات . وهكذا يمكنه أن ينقذنا من اختلاف المصـــطلحات العلمية ــ العربية ــ بين المشرق والمغرب ، بل بين ســـوريا ومصر مثلا .

لا عيب فى هذا المترجم الالى الا الوقت والجهـــــد اللذان يحتاج اليهما حتى يكون جاهزا للعمل . ولكننا قد

قطعنا اشواطا طويلة في هذا السبيل بالفعل . فكل جرائد المصطلحات التي أعدتها المجامع اللغوية ، وكل الاجتهادات التي قام بها الافراد والمؤسسات لترجمة المصطلحات العلمية ؛ طعام يمكن فرزه وغربلته ليتغذى به هذا المترجم الالي ، الذي ينبغي أن يخدم العلماء العرب في مختلف أقطارهم . شيء واحد يجب أن نحذر منه : ممثلي المؤسسات التجارية « وقد رأيت بعضا منهم « والحمد لله على أنهم ردوا خائبين » الذين يحاولون اقناعنا بشراء مترجم طيب ، متوسط الخبرة ، قادر على ترجمة كتب المرحلة الثانوية ومافي مستواها ، لا اكثر لنحذر هؤلاء الباعة !

المترجمون

الزائر الذى يجيئنا من المريخ ويعرف ان السبب الاكبر فى تفوقنا على الغرب فى علوم الغرب قبل الف سنة ، وتخلفنا عنه اليوم ، هو أننا فى المرة الاولى نقلنا علومه الى لغتنا فامتلكناها ، وأصبحنا أساتذة بعد أن كنا تلاميذ ، وفى المرة الثانية اكتفينا بآثارها فربح من بيعها لنا ، ولزمنا مقاعد الدرس لديه فلم يكد يعلمنا أكثر من طريقة استخدامها ـ هذا الزائر ربما خطر بباله أن يلم بمكتباتنا أو دور كتبنا ، ولابد عندئذ أن تستوقفه الكثرة الهائلة من الكتب المترجمة فى أبواب القصـــة والرواية والمسرحية وما اليها : وبما أنه تعود أن يقارن بين مانفعله اليوم ومافعلناه قبل الف سنة فسوف نصارحه بأننـــا عاتبون على أجدادنا هؤلاء وآسفون جدا ومضطرون الى الاعتراف بأنهم وقعوا فى تقصير شديد حين غفلوا عـن ترجمة ملاحم هوميروس وتراجيديات ارسطو فانيس . حتى كان من نتائج ذلك خلو أدبنا من الملاحم والمسرحيات وهو أمر يسبب لنا حرجا شديدا حين نتحدث مع أهل الغرب فى مثل هذه الموضوعات . والحمد لله على أن وفق شوقى فى هذا القرن الرابع عشر أو العشرين الى كتابة المسرحية الشعرية ، وقيض للمسرحية النثرية والرواية والقصة القصيرة من فرسانها العرب من يفوتون الحصر . وما كان ذلك ليتيسر لولا عنايتنا منذ بضـــع

عشرات من السنين باثراء لغتنا العربية ببدائع الغرب في هذه الفنون ، ولولا اقبال الجمهور على هذه المترجمات التي وجدها أقرب الى ذوقه ومزاجه .

واخشى الا يهش الزائر المريخي لحماستنا ، ولا يقتنع بحجتنا ، بل يقول لنا مثلا : يبدو لي مما عرفته من احوالكم أن هذه الفنون ما أدخلها في آدابكم أول الامر الا المفتونون بتقليد الغرب في كل شيء ، وماراجت الا لدى العوام والبطالين ، وماسمت الى مستوى الادب الرفيع الا باخرة ، ففيها اليوم حقا أعمال جيدة توقظ الشعور ، وتثير الفكر ، وتحرك الكامن من قدرات الانسان ولكن الغث لا يزال فيها أكثر من السمين ، وأروج لدى هذا الجمهور الذى تتحدثون عنه . ومع ذلك فاسمحوا لى ان أسألكم : اما كان الاجدر بكم أن تفعلوا فعل اجدادكم القدماء ، فتنقلوا علوم الغرب أولا ، لانهما تناسبكم بمقدار ماتناسبه ، وتنفعكم بمقدار ما تنفعه ، وتقتصدوا بعض الاقتصاد فى نقل آدابه وفنونه ، أو تحسنوا الاختيار من هذه الاداب والفنون ؟ وإني لاعلم ان أكثركم بين احد رجلين : رجل يقرؤها ليسترسل معها فى أحلام فارغة ، فهو يبحث عن التافه والخليع ، ورجل يقرؤها ليقال انه مثقف ، فهو يبحث عن الغامض والشاذ .

هكذا يقول الزائر المريخي لانه لا يبالى بآراء اهل الارض ، فما بالك بركن غير مهم منها . أما انا الذي أصبحت راويته فلابد لي ان الطف كلامه بقدر ماأستطيع؛ ولا سيما وقد أصبح ناقدا أدبيا ، بعد أن كان يخوض في أحاديث اللغة ، والادباء أشد غيرة على أدبهم من

علماء اللغة على علمهم ، فترى الواحد منهم ــ أى من الادباء ــ أذا كتب قصة او نظم قصيدة لم يقبل منك نقدا لها ، ولم يرض سكوتك عنها ، ولم يصدق زعمك ــ صادقا أو كاذبا ــ انك مافرغت بعد لقراءتها وانعام النظر فيها والتشبع بمعانيها . فلابد لك من أن تقرأ وتعجب وتعلن اعجابك بشتى طرق الاعلان .

ومن حسن الحظ أن الزائر المريخى شغل بالمترجمين عن المبدعين ، فلم يصب هؤلاء منه الا رشاش ارجو الا يؤذيهم كبير اذى ، ولعلى أوفق الى اسقاطه على اعتبار أنه لا يمس جوهر الموضوع ، وانى أنقل كلام المريخى من لغته الجافية القاسية الى لغتنا الحلوة الناعمة ، ولعله لا يعود ثانية من المريخ ــ أن قيض له أن يقرأ هذا الكلام هناك ــ فيمسك بتلابيبى لانى ضربت ــ بما نقلته عنه ــ أسوأ الامثلة للنقلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه قال لافض فوه :

« هناك مثل ايطالى ، شاع فى جميع اللغات الاوربية ، يقول : « المترجم خائن » . ولاشك أن ترجمتنا لهذا المثل فيها بعض الخيانة أيضا ، ففى المثل الايطالى جناس جميل ، لا يمكننا أن ننقله الى العربية الا اذا عبثنا بالمعنى . فأما المعنى واما الجناس ، ولو كان الجناس مجرد حلية لفظية كما توهم علماء البلاغة الذين لم يفهموا ــ على مايبدو ــ قول أمامهم عبد القادر الجرجانى فيه ، لهان الامر . انما الجناس اللفظى المحض هو الجناس الردىء ، وهو من هذه الناحية لا يفترق عن كثير مما تقرؤه فى هذه الايام مما هو الفاظ محضة ليس تحتها معان ، وانما هو كتلك الهياكل الخشبية التى

يضعون فوقها ثوبا أو سترة هذه يخيفون بها الطيور . وتلك يخيفون بها القراء الاغرار ، اما لطف الجناس فى هذا المثل الايطالى فهو ان كلمة مترجم Traduttore لا تختلف عن كلمة « خائن » Tradittore الا فى حرف واحد ، مع أن الاشتقاق مختلف بالطبع ، ولكنك — حتى لو كنت ايطاليا — لا تفكر فى الاشتقاق حين تسمع المثل ، بل تتوهم أن الفرق هين جدا بين معنى الترجمة ومعنى الخيانة ، كالفرق بين اللفظتين ، او ان الذين سموا المترجم مترجما لم يختاروا له هذا الاسم الا لمكان الشبه بين ماياتيه من فعل وبين فعل الخائن .

وهذا هو الشأن فى كل كلمة — مثل أو بيت أو قصيدة او قصة — تعتمد على ايحاءات اللفظ اكثر مما تعتمد على معناه الصريح . ولذلك كانت الترجمة الادبية اصعب مراسا من الترجمة العلمية بما لا يقاس ، مع ضعف تاثير الاولى وقوة تأثير الثانية كما قلت لك . فهنا اذن سبب ثان يزيدنى عجبا منكم لانكم انفقتم من وقتكم وجهودكم واموالكم فى الاولى مالم تنفقوا مثله فى الثانية الترجمة الادبية لا تصلح للعقل الالكترونى ولا يصلح هو لها . وقد جربه القوم فى ترجمة أبيات من شكسبير فاتى بأشياء تضحك الثكلى كما تقولون أنتم ، ولا أدرى كيف يمكن أن يقول الانكليز أو الفرنسيون أو غيرهم « تضحك الثكلى » بلغتهم ، ولكننى أظنها ستبدو فى ثوبها الافرنجى متكلفة سخيفة ، وأن مترجمهم لو عثر بها فى كلام لابد لها بعبارة تقارب معناها فى لغتها ، اى أنه سيرتكب — غالبا — عملية خيانة .

لذلك ياسيدى كانت ترجمة الادب الغث أسهل جدا

من ترجمة الادب الرفيع ، فهذا الادب الرفيع اشـبه بالصنعة المتقنة ، ترى فيه آثار « التشطيب » لا يحسها الا الخبير ، وهناك ــ كما قلت انت ــ جمهور يبحث عن الاثارة ، يقرأ ليحرك انفعالاته الساذجة او يشبع غرائزه المكبوتة ، فتكفيه الترجمة السريعة لرواية تستهويه بأحداثها ، او تدغدغ عواطفه بمبالغاتها ، وربما كانت الرواية البوليسية هى خير مايقدم لهذا الفريق ــ وهو الفريق الاكبر ــ من القراء ، لانها ــ على الاقل ــ تطالبه بشيء من التنبه واعمال العقل ، فهى أشبه بالالغاز .

ومن المترجمين من يعمد الى المواضع التى يرى أن قارئه أشد اقبالا عليها ، و « انسجاما » معها ، فيطيل فيها بقدر ماتسعفه اداته اللغوية ، وموهبته الادبية ، فهذا ربما كان أكثر من غيره خيانة ، ولكنى ارجوك الا تعجب حين أقول لك انه أقوى تأثيرا فى ادب أمته ممن يترجم ترجمة حرفية أو شبه حرفية ، وانما تتوقف قيمة عمله على موهبته الابداعية . ويكفيك المنفلوطى مثلا ، وأحسب أن شباب اليوم مازالوا يقرأون رواياته: مجدولين والشاعر وفى سبيل التاج الخ . وهى روايات لم يترجمها المنفلوطى ولكنه استولى عليها عنوة واقتدارا من أصحابها الفرنسيين ، وحولهـا بأسلوبه الرائق وحساسيته الفائقة بأذواق القراء العرب فى زمنـه الى أدب عربى . ولم يكن المنفلوطى حالة شاذة ، بل لعله اقرب الى الحالة النموذجية للاعمال الادبية الاقوى تمثيلا لعصرها ، وتأثيرا فى العصور التالية ، ولا أظن أن فى الآداب العالمية كلها ــ بعد الكتب المقدسة ــ كتابا أهم من « الف ليلة وليلة » ، فهذا الكتاب نعرفه فى صورته

العربية كتابا يعبر بطريقة قصصية خيالية عن المجتمع العربي في العصور الوسطى بشتى جوانبه المادية والروحية ولا تكاد تفكر انه مترجم ـ أصلا ـ عن الفارسية ، وقد ترجمه جالان الى الفرنسية في القرن الثامن عشر ، فكان له في الاداب الاوروبية كلها تأثير عظيم ، مرجعه الاساسى تصرف جالان في الترجمة ، فان الترجمات الدقيقة التى تمت بعد ذلك لالف ليلة وليلة ظلت محصورة في دوائر المستشرقين .

ويبقى المترجم الذى يحاول أن يجمع بين الامانة ـ اكبر قدر ممكن منها ! ـ وبين التأثير الفنى . هذا انسان شقى ، منكور القدر ، ضائع بين الفريقين السابقين ، وعزاؤه الوحيد أنه حين يحاول أن يجرى نوعا من المصالحة بين اللغة التى ينقل عنها ، ولغته التى ينقل اليها ، انما يسهم في احداث التوازن المطلوب ، والضرورى ، بين الثقافة الوافدة والثقافة الاصيلة .

اللغة الثالثة

« اللغة الثالثة » خطأ مركب على خطأ فليست كقولك مثلا « لغة الصحافة » او « لغة السياسة » أو « لغة التقارير الرسمية » الخ .. ولكن « اللغة الثالثة » تشير ـ كما هو واضح ـ الى لغة أولى ولغة ثانية ، وهل تكون اللغة الاولى الا الفصحى ، والثانية الا العامية ، هذا هو الخطأ الاصلي وهو أفدح الخطأين شكلا ومضمونا فاما شكلا فانه يجعل الخطأ كأنه قضية مسلمة فليس هنا ذكر للغة أولى ولغة ثانية وكأن وجود « اللغتين » لم يعد محل نقاش . وأما مضمونا فلان دعوى وجود « لغتين » عامية وفصحى هي الدعوى التى داب عملاء الاستعمار منذ قرابة قرن على ترديدها ، زاعمين ان الفصحى هي « لاتينية الشعوب العربية » التى يجب ان تنسلخ منها اذا شاءت أن تتقدم وتتحضر . وهى دعوى لا سند لها من العلم ، أنما هى سياسة صرف ، ولذلك لا يناقشها الانجليز ولا الفرنسيون ولا غيرهم بالنسبة للهجات الكثيرة المنتشرة فى بلادهم ، ولا بالنسبة لاختلاف مستويات التعبير حسب اختلاف التربية والبيئة الثقافية .

وأما الخطأ الثانى فهو توهم أن اللغة « العصرية » هى التى تتخفف من اكثر « الصعوبات » فى اللغة القديمة . واشد « الصعوبات » ثقلا على قلوب أنصار « اللغة

الثالثة » هى الاعراب . وانكَ لتقرا آو تسمع دعاواهم فيخيل اليك ان هذا الاعراب ماهو الا كتلك الحفـريات الباقية من كائنات منقرضة : شيء لم تعد له وظيفة ولا مكان فى الحياة العصرية ، هذا مع آن من اللغات الاوربية التى لا يجادل أحد فى أنها « حية » ـ كما يجادلون فى لغتنا الفصحى ـ ماتحتفظ بالاعراب ، كالالمانية والروسية بل ان علأمات الاعراب فى الالمانية أصعب منها فى العربية فهى فى الالمانية حروف صامتة كلها ، كالراء والنـون والميم ، وليست حركات كما هى الحال فى العربية ، فأنت فى العربية تستطيع أن تلجأ الى التسكين اذا خفت أن تقع فى خطأ وامنت التباس المعنى ، ولكنك لا تستطيع ذلك فى الالمانية .

والذين يخافون من الاعراب يتوهمون انك اذا حذفته فقد حذفت النحو كله أو معظمه ، وكأن هؤلاء ـ وهم فى الظاهر على الاقل ممن يتقنون لغة أجنبية او اكثر ـ لم يلموا بكتاب واحد فى قواعد اللغة الانكليزية او الفرنسية وانما تعلموهما من افواه خدم الفنادق او ـ على أحسن تقدير ـ من قراءة الروايات فقط . فهل خلت احدى هاتين اللغتين من النحو حين خلت من الاعراب ؟ ان العكس هو الصحيح ، فلكل منهما نحو شديد التركيب والتفصيل ، وكثير من قواعده لم ينشأ الا ليحل محـل الاعراب فى ضبط العلاقات المعنوية بين الكلمات والجمل وهكذا يمكن ان يؤدى الغاء الاعراب من لغة ما ، على المدى الطويل ، الى التزام قواعد اشد صعوبة من الاعراب ، وهكذا الشأن فى كل استعمال لغوى يحرص على وضوح التفكير ودقة التعبير .

ان ذهاب الاعراب من طريقة التخاطب ـ الى جانب سمات لغوية كثيرة اخرى ـ واقع ملموس ومعترف به . وأشد الناس تحمسا للفصحى لا يستعمل الاعراب حين يتحدث في البيت او في السوق . ولكن تسمية هذه الطريقة « لغة » ـ بالمعنى الاصطلاحي لكلمة « لغة » ـ امر أخطر بكثير لانه يعني ـ بصورة عملية ـ ان يتحرك المجتمع كله نحو الشكل العامي من اشكال اللغة ، في حين اننا نشهد الان حركة مضادة ، لا تقل قوة ، نحو الشكل الفصيح ، لعل من أوضح الامثلة على ذلك أن ماكان يسمى « الزجل » العامي قد اختفى ، وحل محله مايسمى الا‌ن « شعر العامية » . ليست التسمية الجديدة مجرد تكريم لشعراء العامية بل ان دراسة « شعر العامية » لغة ومضمونا يمكن ان تكشف تقاربا شديدا بينه وبين الشعر الفصيح « في صفات الجودة والرداءة على السواء » . وقد أصبح الحوار في كثير من التمثيليات الاذاعية « مسموعة ومرئية » قادرا على الحركة الرشيقة الناعمة بين عدة مستويات من الاستعمال اللغوى ، ومن أراد أن يتبين التطور اللغوى الخطير الذى تم في هذا الاتجاه فليرجع الى مسرحية « مصر الجديدة ومصر القديمة » لفرح انطون « ١٩١٢ » ، حيث نجد أربعة مستويات متنافرة من الاستعمال اللغوى ، او الى مسرحية « الاباء والبنون » لميخائيل نعيمة « ١٩١٦ ؟ » حيث يجد مثلا آخر من الترقيع اللغوى .

ولاشك ان الصحافة والتمثيل والاذاعة كلها ساعدت على هذا التقارب اللغوى . ولكنها لم تخلق « لغة ثالثة » وهنا يجب ان نوضح السبب الاعمق الذى يدعونا لرفض

هذه التسمية . أننا لا نرفضها لمجرد أنها تنطوى على مغالطة حين تسمى « لغة » ماليس بلغة ، ولا لانها تنطوى على جهل بطبيعة النحو حين تتصور أنه مرادف للاعراب ، او ـ بعبارة أدق ـ للعلامات الاعرابية ، ولكن لانها تقوم على استراتيجية لغوية خاطئة ، استراتيجية محورها « الانفصال » لا « الاتصال » ، انفصال بين ما نعده مستويات متعددة للتعبير داخل لغة واحدة ، وانفصال بين حاضر اللغة وماضيها ، بين الفكر المعاصر والتراث . هذا هو مكمن الخطر فى دعوى « اللغة الثالثة » انها ـ بدون شك ـ تمثل تقدما حقيقيا اذا قيست بالدعوة القديمة الى استعمال العامية بدلا من الفصحى فى أغراض التعليم والثقافة العليا ، لان الدعوة القديمة استندت الى أن هذا التحول قانون طبيعى لا يمكن تخطيه ، فى حين ان الدعوة الجديدة انطوت على استراتيجية لغوية ـ وان تكن خاطئة ـ حين قبلت فكرة أن التحولات اللغوية يمكن توجيهها بالاعتماد على تخطيط لغوى واقعى محكم وخطرها الاستراتيجى يرجع الى عامل واحد ، وهو انها تبنت ـ ربما دون وعى ـ مفهوم « الفصل » الذى زرعه الاستعمار . ولم تكن الفروق اللغوية التى حاول تعميقها ، على أمل أن تتحول الى انفصال حقيقى ، سوى وجه آخر للفروق الاقليمية والجنسية والحضارية والطبقية التى حاول فرضها ، أو انعاشها وتقويتها ، فى المنطقة العربية .

كلمة على الهامش : من أقبح ماخلفه الاستعمار فينا من الاثار الفكرية أنك اذا عالجت مشكلات الواقع من زاوية اسلامية أو عربية كنت متعصبا ومجانبا للموضوعية

العلمية . وربما كانت أدعاءاتهم التى يراد بهـا تفتيت مجتمعاتنا وهدم نظمنا الحضارية مبنية على تجـاهل شديد للواقع ، ولكنهم يحرصون على آلا يشيروا فيهـا من قريب أو بعيد ، الى اغراضهم السياسية ، فينخدع بها الاغرار منا ، ويتقبلونها على انها حقائق محـايدة فليغفر لى القارىء اذا وجدنى اشير الى بعض الاعيب السياسة وانا أتحدث عن اللغة ، فان العلم الذى جاءنا القوم به لم يكن بريئا من السياسة .

ولكى أوضح معنى « الاتصال » الذى اتحدث عنـه ، والذى لاينفى التنوع ، اقول ان اللغة ارث مشترك ، يمتد عبر الاجيال وعبر الجماعات وعبر الوظائف العمليـة . يأخذ منها كل اقليم مايناسبه ، ليجريه فى شئون حياته اليومية ، فيكون مايتحدث به فى هذه الشئون « لهجة » . وتأخذ منها كل بيئة اجتماعية مايتفق مع حاجاتهـا ونمط حياتها ، فيكون ذلك قانونها او عرفها اللغوى . ويأخذ منها اصحاب كل مهنة مايفى بأغراضهم فيـكون ذلك اصطلاح أصحاب المهنة ، وتتعدد الفروع وتتشابك الى مالا نهاية ، حتى تكون لكل فرد لهجته الخاصة التى تتألف من عناصر من اللهجة والقانون والاصطلاح . ويأتى الادب فيقبل ذلك كله ويدخله فى مادته ويخضعه لاغراضه فتكون الاساليب الادبية . ويمتد ذلك من جيل الى جيل بلا انقطاع ، فيكون النسيج غير المرئى الذى يضمن بقـاء الامة كأمة .

لا يمارى أحد فى ان اللغة العربية قد تطورت تطورا واسع المدى منذ العصر الجاهلى ، وأنها ستظل تتطور ، ولكن هذا التطور يتبع منها ويصب فيها دائما . فهو اذن

تطور كامن فيها ، ككمون الشجرة فى البذرة ، تنمو الشجرة وتتساقط بعض اوراقها ، ولكن الشجرة باقية، والى هنا يجب ان يتوقف التشبيه ، فان احوال الحياة الانسانية لا تتفق مع أحوال الحياة النباتية أو الحيوانية من جميع الجهات . ان الكلمات التى تذبل وتموت ــ والتراكيب مثل الكلمات ــ لا تترك للضياع كأوراق الشجر المتساقطة تدوسها الاقدام وتذروها الرياح . انها تحفظ فى أمكنة امينة ، فى المعاجم الكبيرة التاريخية وكتب النحو الموسعة التاريخية ، لان الانسان ليس مجـــرد حيوان ، ولكنه حيوان ذو تاريخ ، والانسان الذى يحفظ قطعة من الشقف استخدمها انسان ما منـــــذ آلاف السنين فى بعض حوائجه المادية ، أحق بأن يحفظ كلمة عبر بها أجداده عن جانب من حياتهم النفسية . يقـول من يتهموننا بالمحافظة : هذه أشياء حقها ان توضع فى المتاحف ! فليتهم علموا قيمة المتاحف ومافيها ! على أن قيمة الالفاظ القديمة ليست متحفية خالصة . ان اللغات الاوروبية ترجع الى اليونانية واللاتينية لتنحت منهمـا مصطلحاتها العلمية الحديثة ، فهل كثير ان نرجع الى معاجمنا القديمة لمثل هذا الغرض ؟ وهل تكون لغتنـــا ــ عندئذ ــ لغة ثالثة ؟

النحو قديما وحديثا

أقل قليلا من نصف قرن مر منذ أصدر أستاذنا ابراهيم مصطفى كتابه « احياء النحو » . كان الكتاب ـ فى جوهره ـ دعوة الى تخليص النحو من الزيادات الفلسفية الكثيرة التى طرأت عليه فى تاريخه الطويل ، واعادته الى مايشبه براءته الاولى عندما وضعه ابو الاسود الدولى ـ الضمة علم الاسناد ، الكسرة علم الاضافة ـ الفتحة حركة تستخفها العرب فيما عدا هاتين الحالتين .

فى هذه الكلمات القليلة اراد أستاذنا ـ رحمه الله ـ ان يختصر كل القواعد الخاصة باعراب الاسم . وكان على أن يصدر جزءا ثانيا فى اعراب الفعل . ثم يبقى علم الصرف . ولا اعرف أن أستاذنا بحثه او درسه ولكن الجزء الذى صدر من « احياء النحو » كان كافيا لتنبيه الاذهان الى ان دراسة النحو فى هذا العصر ـ عصر النهضة والاحياء ـ يجب الا تقتصر على شرح مافى كتبه القديمة ، فهناك أيضا مجال للتساؤل والنقد . وقد قامت القيامة على الاستاذ ابراهيم مصطفى ، ولكنه كان محاربا عنيدا ، واستطاع أن يقنع زملاءه فى اللجنة التى شكلتها وزارة المعارف لاعادة تأليف كتب النحو بقبول نظريته . وهكذا جاءت فترة على تلاميذ المدارس الاعدادية والثانوية لم يكونوا يتعلمون فيها ان الجملة تتألف من فعل وفاعل او مبتدأ وخبر ، بل من مسند ومسند اليه . ومن الطريف فى عهد الوحدة القصيرة

الامد بين مصر وسوريا شكلت لجان لتوحيد الـكتب المدرسية . فكان مما أصر عليه الاعضاء السوريون في لجنة النحو الغاء طريقة ابراهيم مصطفى . وهددوا بأن الوحدة زائلة حتما ان أصر الاعضاء المصريون على تسمية الفاعل مسندا اليه ، ومع أن الفاعل رجع كما كان فاعلا فقد زالت الوحدة أيضا .

ولا أدرى كيف غاب عن خصوم ابراهيم مصـطفى وانصاره على السواء أن دعوته كانت ـ فى صميمها ـ دعوة سلفية . وأنه حاول ان يصنع فى النحو شيئا شبيها بما حاول زميله امين الخولى أن يصـنعه فى البلاغة والتفسير : ان يعود به الى المنابع الاولى ، مع وعى بحاجات العصر . فلم يكن هجومه الشهير عـلى « فلسفة العامل » الا هجوما على بدعة رآها دخيلة على النحو الخالص . وقد تواصلت الدراسات حـول النحو بعد ابراهيم مصطفى . ولم تعد عبارة مثـل « احياء النحو » أو « تجديده » أو « تيسيره » تفزع أحدا . وساعد على نمو هذه الدراسات التوسـع فى الدراسات العليا فى الجامعات العربية « التى كثر عددها كثرة ملحوظة » .

واعترفت المجامع اللغوية بالحاجة الى اعادة النظر فى أبواب النحو ، فشغل موضوع « تيسير النحـو » حيزا كبيرا من اهتمام « لجنة الاصول » فى المجمـع اللغوى بالقاهرة ، بل ان المجمع الاردنى اعلن منذ بضع سنوات عن جائزة لمن يتقدم بمشروع يرتضيه المجمـع لتيسير النحو . ومع ذلك يبدو اننا لانزال نتحرك على طريقة « السير فى المحل » فلماذا ؟

أرجو أن يسمح لي القارىء « وانا اعلم أن هذه الكلمة ربما وقعت في أيدي من هم أعلم مني بالنحو وغير النحو » ان اطرح بعض الافكار .

ان هذا الجيل العظيم من أساتذتنا « ابراهيم مصطفي وأمين الخولي وغيرهما » كان لهم منهج في دراسة الثقافة العربية يمكننا ان نصفه « أخذا من عناوين بعض رسائلهم » بأنه : « تاريخي نقدي تجديدي » ومعنى ذلك أنه لم يكن خالصا للتاريخ ، بل كان يذهب الى التاريخ ليلتقط منه « ربما بشيء من العجلة احيانا » مايصلح لان يبنى عليه حاضر الثقافة العربية . وهذا مبدأ معرفي صحيح في الجملة ، الا انه في مرحلة كمرحلتهم لم يكن من الممكن تطبيقه دون ان يقع الحيف علي واحد من هذه الجوانب الثلاثة ، او عليها جميعا . فلم تكن نملك النصوص الكافية لجلاء ذلك التاريخ ، ولا المنهج النقدى القادر على تصحيح نظرتنا اليه . ولا المعرفة الواضحة بعالمنا المعاصر لندرك حقيقة احتياجاتنا . وكان واجب الجيلين التاليين من دارسي الثقافة العربية أن يتعمقوا كل واحد من تلك الجوانب الثلاثة ، ولعل ذلك كان يقتضي قدرا من التخصص ، ولكن التخصص وحده لم يكن كافيا . استمع لما يقوله أستاذ مخضرم من أساتذة النحو « الاستاذ سعيد الافغاني ـ مد الله في عمره ـ عن الدراسات النحوية الحديثة .

« ان نظرة فاحصة في دراسات المحدثين تقودنا الى الشك في بعض ما عدوه من المسلمات انسحابا على أذيال بعض القدماء ممن تكلم في النحو والنحاة » وايضا : « وحول نشأة النحو بعض غموض اجتهدت في جلائه

بما لدى من أضواء ، ممتحنا الاخبار والروايات ، متحريا فيها مايشبه الحق وطبيعة الأشياء ، حتى اذا اطمأننت الى نتيجة أثبتها بعد امتحانها ، ضاربا صفحا عن سطحيات وعناوين وتهاويل كثيرة يسميها اصحابهـا دراسات ، الموضوع منها والمترجم سواء . » « من تاريخ النحو ـ المقدمة » .

والذى يبدو لى أن هذين الجيلين لم يتقدما كثيرا فى طريق العلم الصحيح ، واعنى بذلك أنهما لم يحدثا جديدا فى منهج البحث ولا نتائجه ، بل وقفا بهما حيث تركهما الجيل السابق . وان أكثر ماتراه من الدراسات الجامعية والكتب المنشورة ليس الا زيادة فى الكم ، والكم لاحساب له عند المحققين . ولعلك تعترض قائلا : والمخطوطات الكثيرة التى نشرت ؟ فأجيبك : ماعن المخطوطات اتحدث، فليست المخطوطات بحوثا ، وانما هى ادوات فى أيدى الباحثين تقرب اليهم الكتاب المخطوط ، أو توفر عليهم عناء استنساخه او طلب صورة منه .

آن ان نعطى التاريخ حقه ، ونعطى المنهج النقـدى حقه ، ونعطى مطالب العصر حقها ، وعندما نخلص العمل فى ذلك ـ عندها فقط سوف تتجلى لنا ثقافتنا الماضية بكل عظمتها ، وسوف ينفسح لنا المستقبل بكل امكاناته.

ان الخلط بين التاريخ والنقد والتجديد قد أوقع فى كثير من الاذهان خلطا آخر أشـد خطرا : الخلط بين اصول الثقافة وبين الطرق المختلفة فى تفسيرها . واعنى فى مسألة النحو بالذات : ان كثيرا من الناس ـ وبينهم علماء لايشك فى علمهم أحد ـ اصـبحوا يخلطون بين اللغة ـ وهى الاساس الاعظم لثقافتنا بعد الدين ـ وبين

النحو الذى لم يكن ولن يكون الا وسيلة لحفظ اللغــة ، لا بمعنى حفظها فى بطون الكتب فقط ـ وما اسهل ذلك! ـ بل بمعنى بقائها حية على السنة أهلها وفى عقولهم وقلوبهم . وعندما يقع هذا الخلط يغيب عن الاذهان ماجل ودق من الفروق بين مذاهب النحويين طوال ذلك التاريخ الحافل الذى نلمــه لما تحت اســـم التراث النحوى .

وانا أعرض على المختصين خاطرة حــول هــذا التراث أملاها الاجلال الشديد له ولاهله : ان العرب بعــد ان فرغوا من وضع نحوهم الاول المبسط « نحو ابى الاسود » وقد كان وحده كفيلا بتقويم السنة البلديين والمستعربين، اضطروا لمواجهة مهمتين جديدتين كانتا أشد عسرا : فأما المهمة الاولى فهى جعل اللغة العربية التى كانت لغـــة شعرية فائقة ، لغة نثرية فائقة أيضا ، حتى تفى بمتطلبات العلوم الحكمية التى لم يكن للعرب بد من التعامل معهــا وهم يبنون حضارة عالمية ، وقد نهض نحاة القرن الثانى بهذه المهمة عن طريق القياس ، فكان منهم ـ كما ذكر ابن سلام ـ من بعج النحو « أى وسعه » ومد القياس . ودعاهم القياس الى البحث فى العلل . لان القيـــاس معناه ، بتعبير أقرب الى فهمنا فى هذه الايام ، ان تعرف قوانين العرب فى كلامها ، وتلتزم هذه القوانين فيما تقوله من كلام جديد لم تقله العرب ، والعلل النحوية ليست شيئا سوى هذه القوانين .

وأما المهمة الثانية فكانت مواجهة ســـيل دافق من الكلمات الجديدة ، التى بدأ يتكلم بها ، او بمعانيها ، فريق من الناس حديثى العهد بالاسلام ، فيهوشون بها

على عامة الناس : العنصر ، الجوهر ، الكمون ، التولد ، الخ .. كما نجد بعض الناس يتحدثون اليوم عن : التكنولوجيا ، التقدم ، الاصالة ، المعاصرة ، الخ .. فكان لابد من أن تنفر طائفة من المسلمين لتحديد مفاهيم هذه الالفاظ فى أذهان الناس ، ولم تكن هذه مهمة النحاة . انما كانت مهمة المتكلمين الاوائل ، ولكن النحويين الذين يعلمون الناس قواعد التعبير السليم كان عليهم — من باب أولى — ان يحددوا مصطلحاتهم ليكونوا قدوة حسنة لغيرهم من أصحاب العلوم .

هكذا — فيما ارى — وضعت الاسس الاولى للنحو العربى . واذا كان بعض المتأخرين قد بالغوا فى هذا الاتجاه او ذاك — كما يبدو لنا الان — فان البحث التاريخى الخالص يمكن ان يقفنا على اسباب ذلك . ويمكن لعلمائنا اللغويين المعاصرين ان ينقدوا وان يبتكروا ماشاءوا من الطرق لدراسة اللغة ، ماداموا يرون أن هذه الطرق تقربنا من فهم اسرارها ، اكثر من الطرق السابقة . وتبقى المهمة العاجلة : وهى تيسير تعلم اللغة العربية الفصحى للملايين من ابناء العربية الذين لا يقرأون ولا يكتبون ، أو الذين لا يستطيعون ان يجاوزوا العامية فى استعمالاتهم اليومية ، او الذين كادت تغلب على السنتهم احدى اللغات الاوروبية ، وللملايين من ابناءافريقيا وآسيا الذين يجدون العربية اقرب لغات الارض الى نفوسهم وعقولهم بعد لغتهم الام . واقرب سبيل لتعليم هؤلاء وهؤلاء هو نحو كنحو أبى الاسود .

فهرس

رقم الايداع : ٢٥٠٠ / ٨٧
الترقيم الدولى : ٠ - ٢٩٠ - ١١٨ - ٩٧٧

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد فئه ٧٥ قرشا : ـ

سوريا ١٨٠٠ ق . س لبنان ١٨ ليرة الأردن ٥٠٠ فلس الكويت ٤٠٠ فلس العراق ١٦٠٠ فلس السعودية ٧ ريالات السودان ٢٥٠ ق . سوداني البحرين ١٢٠٠ فلس الدوحه ١٢ ريالا دبى ١٢ درهما ابوظبى ١٢ درهما مسقط ١٢٠٠ بيسه تونس ١٦٠٠ مليم المغرب ١٥٠٠ فرنك غزه والضفة ٧٥٠ سنتا اليمن الشمالية ١٥ ريالا عدن ١٤٤ سنتا الصومال ١٣٠ بني لاجوس ١٢٠ بني داكار ١٠٠٠ فرنك لندن ١٥٠ سنتا اثينا ٢٠٠ دراخمة كندا ٥٠٠ سنت البرازيل ٦٠٠ سنت استراليا ٦٠٠ سنت ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة



هــذا الكتاب

« فى البدء كانت الكلمة » وعندما تبدو لنا الحياة خاوية بلا معنى ، فوضى بلا هدف ، يجب أن ننظر إلى الكلمات التى تدور فى حياتنا ، فربما وجدنا كلمات كثيرة مراوغة نخفى وراءها عجزنا عن اتخاذ موقف . فإذا أردنا أن نبدأ من جديد فعلينا أن نحاكم أنفسنا من خلال هذه الكلمات .

فى سنة ١٨٨١ ، أى عشية الثورة العرابية ، تناول أحد الرواد ـ الشيخ حسين المرصفى ـ ثمانى كلمات كانت بحاجة إلى تحديد معانيها حتى تبصر الثورة طريقها : الأمة ، الوطن ، الحكومة ، العدل ، الظلم ، السياسة ، الحرية ، التربية .

وفى هذا الكتاب يحاكم الدكتور شكرى عياد كلمات تحتاج هى الأخرى إلى الفحص عن هويتها قبل أن نجعل لها دورا ما فى حياتنا : كلمات مثل : الثورة ، الأمن ، الانفتاح ، الثقافة ، الإعلام ، التعليم ، التكنولوجيا ، الخ .

إن فوضى الكلمات لايقتصر خطرها على نشر
جميع مرافق حياتنا ، بل ينخر فى أعمدة اللغة نفسـ
كلغة ثقافية وحضارة مخلية ، مكانها للغة أو لغا
أنواع الاحتلال .

ويقدم الكاتب الكبير الدكتور شكرى عياد إض
هذا الكتاب ـ فى قضية اللغة العربية باعتبارها عل
القومية والسياسية .

